الفخ الذهبىّ

٢٣

الفخ الذهبىّ

عن : ج . أ . كـــرووود

بقلم : عادل الغضـــبان

الطبعة التاسعة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.م.ع.

١

كان " برام جونسون " رجلاً نسيجَ وَحْدِه لا يُشبْه بقيّة الرجال فى عادته و أطواره .

وكان يعيش فى تلك الأصْقاع ، النائية من شمال القارة الأمريكية ، حيث تمتدّ صحارى الجليد صحراء بعد صحراء لم تصل إليها يد المدينّة والعمران ، وكان ابن تلك البيئة البدائية الباردة ، تثقل كاهله ضُروب من الهواجس والوساوس ، طبعته بطابَعها ، وسَرَتْ فى عروقه ، ونَبَضات مع نبضات فؤاده .

والعجيب فى أمر هذا الرجل ، أنه كان يبدو أحياناً ، رجلاً تخفِق فى جوانحه نفس بشريّة حية ، ويظهر أحياناً أخرى فى مَظْهَر وحش ضارٍ لفظته أفواه الجحيم .

ولابد لنا فى رسم صورة هذا الرجل ، والغَوص فى أعماق نفسه ، من الرجوع فى سُلالته إلى أزجيال ثلاثة .

ولابدّ لنا قبل ذلك أيّها القارىء العزيز ، من أن نعرّفك بالمكان الذى ستجرى فيه حوادث قصَّتنا ، وأن نطلعك على أجناس الناس الذين يعيشون فيه .

فلو أنك ركبت زورقاً من الزوارق ، ومَخَرْتَ به عُباب بحيرة " أتابسكا" ، وهى البحيرة الواقعة فى شمال غرب " كندا " ، ثم إنحدرت منها إلى " نهر السلام " ، وتابعت سَيْرك نحو الشمال حتى تصل إلى بحيرة " العبد" ثم خرجت منها وسِرْت بزورقك فى نهر " ماكنزى" متّجهاً إلى الدائرة القطبية... أجَلْ لو فعلت هذا ، لوقع نظرك على مجموعة مختلفة من أجناس البشر .

فهناك الهندى المسمّى " شبوا " ذو الوجه المستطيل ، والخدّ الضّيق، وصاحب الحركات السريعة والقوارب المسوّرة ، وهناك رجال قبائل تسمّى " كرى " تتميز ببطء الحركة ، والخدود العريضة ، والعيون الضيّقة ، وتصنع قواربها من عِيدان القصَب .

وهؤلاء الرجال لا يمتُّون إلى جنس واحد ، فكلما اتجه الإنسان إلى الشمال، وقع منهم على جنس مختلف يتباين بين قبيلة وأخرى حتى يراهم أشبه باليابانين .

وإذا أمعن الإنسان توغّلاً فى بِقاع الشمال ، ظهر له رجل ال " شبوا "

من جديد ، ولكن فى مَظْهَر آخر ، فهو هنا واسع الوَجنتَين مثقوب العينين ، مثل الصينين ، ويُطْلِق عليه علماء الجغرافيا اسم " الأسكيمو ".

فى تلك البقاع ، وبين هذه الأجناس من البشر ، جال أحد جدود أسرة " جونسون " منذ نحو مائة عام ، ومَضَى صُعُداً من الجنوب إلى الشمال ، فاختلط دمُ أبنائه وَدَمُ أبناء أبنائه بدم " الشبوا " أوّلاً ثم بدم " الكرى " حتى أمتزج على التوالى بدم " الأسكيمو " .

وفى غَمَرات الزواج والمصاهرة بين سلالة " جونسون " وأجناس تلك القبائل ، بقى اسم " جونسون " حيا تتداوله أفراد الأسرة وتتسمّى به جيلاً بعد جيل .

فلو دخلنا الكوخ الذى يسكنه " برام جونسون " . وأوحى إلينا الاسم أننا سنقابل فيه رجلاً أبيض ، لتملكتنا الدهشة من أن نرى فيه صِنْفاً من الرجال لا يمكن أن ننسبه إلى جنس من الأجناس .

فقد وَرث " برام جونسون " ، بعد قَرْن من ذلك الامتزاج الذى أشرنا إليه ، بَشَرَة الرجل الأبيض وشعره وعينيه . أما بقية ملامحه فهى أقرب إلى جنس أمّه التى كان فيها مزيج من دم " الأسكيمو " ، ولكنه كان مع ذلك يختلف عن ملامح ذلك الجنس بطول قامته التى تبلغ ستّ أقدام .

وجملة القول ، أن الرجل كان عِمْلاقاً من العمالقة ، عريض الخدّين ، غليظ الشفَتين ، أفْطَس الأنف ، أبيض البَشَرَة ،

أشقر الشعر ، فى حين أن " الأسكيمو " يمتازون بسواد الشعر ، وكانت عيناه زرقاوَيْن ، يَحُول لون زُرْقتهما فى ساعة الغضب إلى لون رَمادى يتطاير منهما الشَّرَر .

وما كان يُعرف لبطلنا هذا لا رفيق ولا صديق ، وكانت الأسرار تُحيط به من كل جانب ، وكان إذا مرّ بقَرية من القُرَى ، لا يمكث فيها إلا رَيْثما يستبدل بالفِراء التى معه بضاعةً أخرى ، وكثيراً ما مرّت الأشهر دون أن يظهر ثانيةً فى الموضع نفسه ، كأنه الصيّاد التائه .

وكان الرجل كذلك يُثير اهتمام رجال الشرطة ، فكانوا يراقبونه حيناً بعد حين ، ويتقصَّون أثَره ، ولم تكن تقاريرهم التى يرفعونها إلى رؤسائهم ، بعد جولاتهم على ظهور الجياد والمركبات ، تخلو من مثل هذه العبارات : " رأينا " برام " وذئابه متّجهاً إلى الشمال " . أو " مرّ بنا " برام " وذئابه " .

وأضاع رجال الشرطة أثر " برام " مدّة عامين كاملين عندما توغّل فى قلب " بلاد الكبريت " شرقىّ " بحْيرة الدبّ الكبرى " ، فلما وجدوه بعد غيابه الطويل وبدا لهم مظهره يبعث على القلق ، ضيّقوا عليه خناق الرقابة ، وكانوا يتوقَّعون أن يُقدم يوماً على ارتكاب وزر من الأوزار .

واتفق أنْ حَدَث هذا الذى كانوا يتوقعونه ، فقد قَتَل " برام " رجلاً من الرجال ، ودَقّ عِظامه بقبضتيه الغليظتين ، قبل أن يصيح

متألما أويصرخ مستنجداً ، وحينما عثر القوم على القتيل جثة هامدة، كان " برام " بعيداً كل البعد عن مكان الجريمة .

وأبلغ الحادث إلى رجال الشرطة ، فعُهِد إلى الضابط " لى " فى القبض على الجانى ، فاصطحب أحد رجاله وسار يتعقّب أثر " برام " ويمّنى نفسه باعتقاله ، وما زال الرجلان يجدّان فى البحث عنه ، حتى أدركاه بعد أسبوعين فى طَرَف مفازةٍ من مفازات الجليد ، فما كاد يقتربان منه حتى سمعا قَهْقَهَة ضَحكٍ غريبة الصَّدَى ، فلم يَعْمِد " برام " إلى إطلاق النار على مطارديه ، بل اكتفى بأن يُطْلق عليهما ذئابه ، فمات الضابط " لى " متأثراً بجراحه ، وتوارى " برام " وذئابه عن الأنظار ، وعاد رفيق الضابط يَرْوى لرؤسائه تفصيل الحادث .

وبقى " برام " منقطع الأثر ، غائباً عن النظر ، أربع سنوات لم يلمحه فيها أحد من الناس .

لقد قضاها " برام " فى صُحبة ذئابه ، فلا إنسان يحدثه ، ولا قرية يقترب منها ليتزوّد منها الطعام ، فعاش مع الذئاب حتى أصبح أقرب إلى الذئب منه إلى الإنسان ، فتمكنت المودّة بينه وبين ذئابه ، وكان يعطف عليهما كما كانت تعطف عليه ، فقامت لديه مقام الأسرة، وحلّت منه محلّ الأخ والأخت والزوجة وسائر المخلوقات ، فمعها كان ينام ويأكل ويتعذب عذابَها من الجوع عندما يعوزه الطعام ، وكان إذا نَفِذ اللحم عنده ، أرسل ذئابه فى إثر وَعْل من الوعول يمرّ به ،

فتطارده حتى تقنصه ، وتُنْشب ، أنيابها فيه وتزدرده قطعةً قطعة ، حتى إذا وصل إليه أخذ نصيبه من تلك الوليمة .

واعتقد رجال الشرطة بعد هذه السنوات الأربع ، أن الرجل لاشكّ قد لَقِيَ حَتْفَه ، إذ لا يُعْقَل أن يعيش الأنسان فى صحْبة الذئاب متوغلاً فى فى مجاهل الصقيع ، إلى أن عادت أخبار " برام " تطرق مسامعهم فقد أشاع بعد الهنود أنهم رأوه ، وأنهم سمعوا صوته كما سمعوا عواء ذئابه ، غير أن رجال الشرطة لم يَحْفِلوا بهذه الأنباء ، وعدُّوها من خُرافات الواهمين ، وكانوا مقتنعين بأن الرجل قد مات وأكلت جثَّته الذئاب .

وجليّة الأمر أن " برام " كان حيًّا يُرزَق ، ولكنه كان يقترب يوماً بعد يوم من طبيعة الذئاب ، غير أن دم الجنس الأبيض الذى يجرى فى عروقه ، كان يُثِير فيه الرغبة المُلِحّة فى أن يسمع صوت بنى جلْدته ، مع أنه ما أحبّ قطُّ رجلاً ولا امرأة ، فلم تزل تلك الرغبة الجامحة تستبدّ به ، حتى وضع القَدَر فى طريقه رجلاً وامرأة ملآ عليه جوانب الحياة .

* * *

كان هذا الرجل الذى دخل حياة " برام " يدعى " فيليب برانت " ، وكان فى ذلك المساء جالساً فى كوخ " بطرس راسين " والمِدْفأة أمامهما تضطَّرم اضطراماً ، وتبعث بالدِّفء والحرارة فى أرجاء الكوخ .

وكان " بطرس " من صيادى الثعالب ، وقد بنى كوخه فى نهاية صفّ طويل من شجر الصنوبر ، يُفْضى إلى صحراء واسعة الأطراف ، وكانت الريح فى تلك الليلة تعصف فى تلك الصحراء عَصفاً قوياً ترتعد له فرائص الشجعان .

وعلى مسافةٍ غير بعيدة من شرقى الكوخ كان يقع خليج " هدسن " أو بحر " هدسن " ذلك البحر الذى يتجمّد سبعة شهر فى السنة .

وفى أثناء الليل ، كان يخالط عَصْف الرياح صياح الثعالب البيض ، فيزيد الجوّ رَهبْة ، ويملأ النفوس قلقاً .

وكان الرجلان جالسين إلى مائدة فى وسط ذلك الكوخ ، يتجاذبان أطراف الحديث ، فاندفع " بطرس " يقول :

– " أجل . . . إن كلامى صحيح كل الصحة . . . لقد رأيته بعينىّ هاتين حَيًّا يُرزَق ! " .

فقطَّب " فيليب برانت " حاجبَيْه ، واختفت من شفتَيْه ابتسامة الشك ، وازداد إصغاءً إلى محدّثه ، والهَمُّ يُقيمه ويُقْعِده .

وكان " فيليب " هذا من رجال الشرطة ، وكان يعرف أن " بطرس " رجل شجاع ، ولولا هذه الشجاعة لما جاء إلى قلب الصحراء يصطاد الثعلب الأبيض ، وكان يعرف عن محدِّثه أيضاً ، أنه رجل لا يَحْفِل بالوساوس ، ولا يتطيَّر تطير رجال مهنته ، فاهتمّ بما سمع ، وأخذ يفكر فى الأمر ، فقطع عليه حبلَ التفكير صوت " بطرس " وهو يقول :

– " أقسم لك يا سيدى إنى رأيته " .

فاحمرّ وجه " فيليب " ، وصعد الدم إلى رأسه ، فأطبق قبضتيه ووضعهما على المائدة بحركة عصبيّة ثم قال :

– " هذا مُحال . . . إن " برام جونسون " قد مات ! "

فقال " بطرس " بصوت متهدِّج :

– " إنه حىّ يُرْزَق ياسيدى ! فلو أننى سمعت هذا النباء من أفواه الناس ، لَحقَّ لك أن تشكّ فيه ، ولكننى أقول لك إنى رأيته رَأىَ العين . . . "

وبعد أن سكت قليلاً تابع كلامه وقال :

– " كنت جالساً جِلْستى هذه ، عندما سمعت عُواء ذئابه ، فاندفعت إلى الباب وفتحته ، وبقيت واقفاً هنية أصيخ السَمْع فى ظلام ، وأجيل طَرْفى فى مختلف الأرجاء لعلىّ أراه . . . ولم يكن هو وذئابه على بُعْد كبير منى ، فأحسست أنه يُسْرع فى خُطاه ، سمعت عندئذ وقع حافر وَعْل تصطكّ على الجليد ، وشعرت أن الرجل وذئابه يجدّون فى أثر الوعل ، وأن صوته الجَهْوَرِى يعلو على عُوائهم . . . إنه هو " برام جونسون " ولا يمكن أن يكون أحداً سواه . . . "

وشبك " بطرس " أصابع يديه بعضها فى بعضها الآخر ، ولاحظ عليه " فيليب " أنه يحاول كَبْح جِماح نفسه ، فطار الشك من فؤاد " فيليب " ، وبدأ يصدّق ما يرويه له " بطرس " فسأله قائلاً :

– " ثم ماذا ؟ هل رأيته ثانية ؟ "

فقال " بطرس " مندفعاً :

– " أجل . . . وعن كَثَب ! وأقسم لك إنى لا أريد أن أعاود ما فعلت عندئذ ، ولو ظفرت بجميع الثعالب التى تمرح فى صحارى كندا " ! لقد تصرفت تصرف المجانين ، فخرجت من الكوخ فى " الليل البهيم ، وتبعت ذلك الموكب الشيطانى ، قتفياً أثر أقدام الذئاب المطبوعة فوق الثلج وأثر حِذاء الرجل . نَعَمْ تبعتُه حتى طَرَف الصحراء ، فطرقَتْ مِسْمَعى قعقعةُ الأنياب وهى تمزّق اللحم ، وكان يخالطها صوتٌ أجَشّ لإنسان من بنى البشر . . . "

وتنفس " بطرس " الصُّعَداء ثم استأنف حديثه قائلاً :

– " ومن حسن حظى أن الريح كانت تعصف فى وجهى ، فما شمّت تلك العصابة رائحتى ولا شعرت بوجودى ، ولكن أى مصير كنت سألقاه لو تغيرت وِجْهة الريح ؟ ! "

فاضطرب " بطرس " عند هذا السؤال ، وفك تشابك أصابعه ، وأخذ يطقطق مفاصل أنامله وعاد يقول :

– " وبقيت يا سيدى نصف مدفون فى تلٍّ من الثلج ، حتى ابتعد الرجل وذئابه ، فاقتربت من الحيوان الذى أنشبوا فيه الأظفار والأنياب وازدردوه ، فبدا لى من عِظامه أنه وَعْل كبير سمين ، فعُدْت أدراجى أسير على غير هُدًى فى ظلام حالك دامس ، فوصلت إلى طرف إحدى

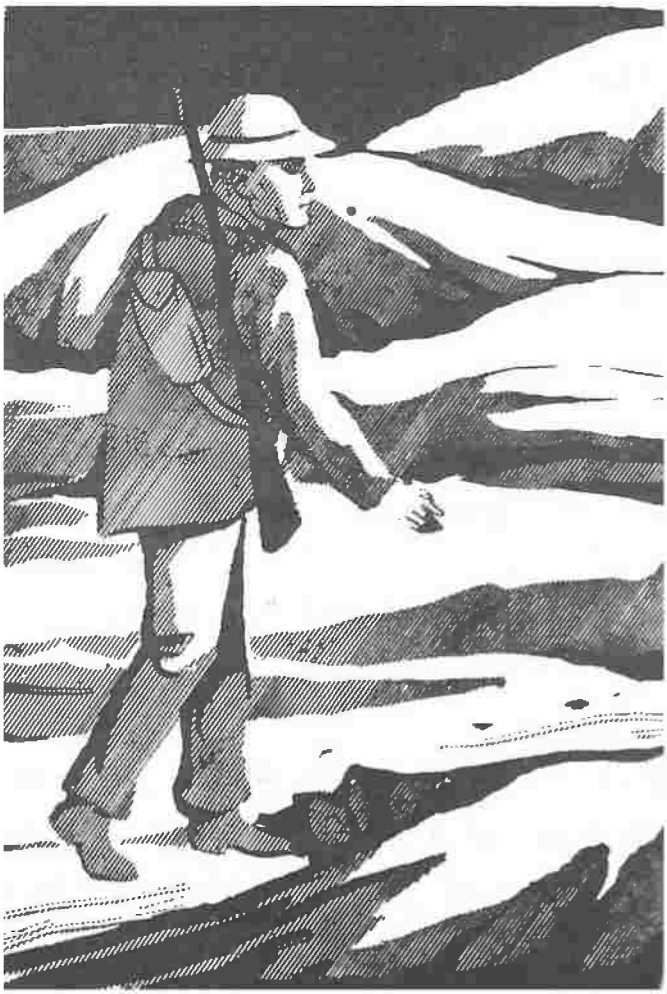

الغابات وكان " برام " قد أوقد فيها ناراً يصطلى بها فنظرت إليه فى ضوء اللهب وتمعنت فى هيئته وملامحه فإذا هو " برام " الذى عرفته ، فقد كان زارنى مرّتين فى كوخى قبل جريمته ، ورأيت الذئاب تسرح حوله مكشّرة عن أنيابها اللامعة الحادّة ، وسمعته يحدّثها ويضحك مِلءَ شِدْقَيْه ، فثاب إلىّ رشدى ، وأطلقت ساقىّ للريح راجعاً إلى كوخى . . . وليس هذا كل ما فى جُعْبتى " .

وعاد " بطرس " يداعب أصابعه ويطقطق مفاصلها ، وهو يطيل التحديق فى " فيليب " ثم سأله قائلا :

– " أتصدقنى يا سيّدى ؟ "

فهزّ " فيليب " رأسه وقال :

– " إن هذا الذى تَرْويه ليبدو مستحيل الوقوع ، ولكننى لا أظنك كنت تحلم يا سيد " بطرس " ! "

فبدت على وجه " بطرس " علامات الرضا وقال :

– " أتصدّقنى لو أفضيت إليك ببقيّة الحديث ؟ "

– " نعم " .

فنهض ومشى إلى غرفة نومه ، ورجع منها وفى يده كيس صغير من الجلد ، يضع فيه قدّاحة وحجر صوّان ، وما إلى ذلك من أدوات إشعال النار عندما يذهب إلى الصيد . فجلس بإزاء " فيليب " وقال :

– " وفى اليوم التالى عدت إلى حيث رأيت " برام " فلم أجده ولا وجدت ذئابه ، فأخذت أبحث فى المكان الذى قضى فيه ليلته ، لعلى أعثر على شىء يكون قد نسيه فعثرت على هذا " .

وفك " بطرس " رباط الكيس ، وثارت ثائرة الفضول فى نفس " فيليب " ، ولكنه سكت وانتظر حتى سمع " بطرس " يقول :

– " ها هو ذا . . . إنه فخ لصيد الأرانب ، وأغلب الظن أنه وقع من جيبه فوق الثلج دون أن يدرى " .

وقدم " بطرس " ذلك الفخ إلى " فيليب " ، فنظر إليه فى ضوء مصباح الزيت المعلق فى سقف الكوخ ، فانطلقت من صدره صيحة دهشة واستغراب ، حتى ليخيّل إلى الرائى إليه ، أن أنفاسه قد تقطعت وهو يحدّق إلى ذلك الشىء العجيب الذى يسطع بين يديه فى لهب المصباح .

إنه فخّ ما فى ذلك شك ، يبلغ طوله نحو تسعين سنتيمتراً ، وتقوم فى طرفيه عقدة من العقد التى اشتهرت بحبكها قبائل " الشبوا " ، ولكن الفخ كان مصنوع من شعر امرأة أشقر كالذهب . . . !

٢

لزم " فيليب برانت " الصمت بعد صيحة الدَّهَش التى انطلقت منه، ورفع عينيه عن ذلك الشعر الحريرى الناعم الذى يمسكه فى يده ، فالتقت نظراته بنظرات " بطرس " وكلّها تنمّ عن أمر واحدٍ يفكران فيه .

وأخرج " فيليب " سكيناً من جيبه ، وقطع بها إحدى العقدتين ، فاسترسلت منها على المائدة ضفيرة شقراء متموجة ، فتطلع إلى " بطرس" ثانية فقال :

– " يبدو أن مع " برام " امرأة . . . "

فقال " فيليب " :

– " لا شك فى ذلك ، إن معه امرأة حيّة أو . . . "

ولم يتمّ جملته فقد تفاهم الرجلان .

وبعد لحظة صمت قال " فيليب " :

– " لست أدرى أين عثر " برام " على مثل هذا الشعر الذى لا نظير له فى الأصقاع ، ولست أظن أن " برام " رحل إلى الجَنُوب ، وقابل فيه سيدة شقراء ، فلا يُعْقَل أن يعرّض نفسه لخطر القبض عليه ، كما لا يُعْقَل أن يحمل ذئابه إلى المأهول العامر من المدن والبلاد ، فوجود هذا الشعر إذن لُغْزٌ محيّر " .

ثم لفّ " فيليب " الضفيرة ، ووضعها فى كيس صغير من الجلد يحمله فى جيبه ، وكأنما قد استقرّ رأيه على أمر من الأمور فقال يخاطب رفيقه :

– " إن المسافة بين هذا المكان و" حصن شرشل " حيث يقوم معسكرنا وإدارتنا العليا نحو ثلثمائة ميل ، وفى منتصف هذه المسافة مركز للجند الراكب ، وإنى لفى حاجة إلى من ينقل منى رسالة إلى ذلك المركز ، ويطلب منه إرسالها إلى " حصن شرشل " لأتفرغ للبحث عن " برام " واعتقاله ،فهل تستطيع يا سيد " بطرس " أن تترك كوخك وأدوات صيدك وقنصك ، وتحمل تلك الرسالة إلى مركز الجند ؟ " .

فتردّد " بطرس " هنيهة ثم قال :

– " نعم سأحملها " .

وانكبّ " فيليب " حتى ساعة متأخرة من الليل ، يكتب تقريره ،

وكان " فيليب " قد أرسله رؤساؤه إلى تلك البقاع ليقبض على بعض اللصوص من الهنود ، وها هى ذى مهمة أخرى تعرض لها ، ويرى لزاماً عليه أن يقوم بها وألاّ يدع المجرم " برام " يفلت من يديه ، فسجّل فى تقريره كل ما أفضى به إليه " بطرس راسين " ، وذكر الأسباب القوية التى تحمله على تصديق رواية محدّثه ، وأنهى تقريره بأن طلب إلى الإدارة العليا ، أن ترسل زميلاً له يتعقب اللصوص الهنود ، وأوضح الجهة التى سوف يسلكها فى مطاردة " برام جونسون " .

ولم يترك كبيرة ولا صغيرة إلاّ أوردها فى تقريره ، غير أنه لم يذكر شيئاً عن الفخّ المصنوع من الشعر الأشقر الذهبى . . .

* * *

وفى صباح اليوم التالى كانت العاصفة لاتزال على أشدها ، فلم يكترث لها " فيليب " ، فطلب من " بطرس " أن يصحبه إلى مكان ، الذى خيّم فيه " برام جونسون " مع ذئابه ، وكان قد مضى على ذلك الحادث ثلاث ليال ، فبلغ الرجلان المكان المنشود ، وأشار " بطرس " إلى الجهة التى سار فيها " برام " فى صبيحة اليوم الثانى ، فاستشار " فيليب " إبرته المغنطيسية ، ثم قال يخاطب دليله " بطرس " :

– " الأرجح أن " برام " قد التجأ إلى الغابة القائمة فى نهاية هذه الصحراء ، ولسوف أسلك هذه الطريق سائراً إليه ، فأخبر بذلك مركز الجند الذى ستحمل إليه رسالتى ، وإياك أن تَنْبِس بِبِنْت شفة عن

الفخّ ، فالحرص يقضى بذلك ، أفهمت يا " بطرس ! " ؟ "

فقال " بطرس " مضطربا :

– " لن أفوه بكلمة فى هذ الموضوع " .

فشدّ كل من الرجلين على يد رفيقه ، وافترقا فى صمت وسكون فسار " بطرس " إلى الجَنْوب ومشى " فيليب " إلى الغرب .

وبعد نحو ساعة من الزمان ، استولى على " فيليب " شعور من الضيق جعله يحسّ أنه ورّط نفسه فى مأزق لا نجاة له منه ، ولا سيما بعد أن نزل لرسوله " بطرس " عن المركبة الزحافة وعن الكلاب التى تجرّها .

واستمرّ يسير إلى الغابة التى يقصدها ، وقد حمل فوق ظهره خيمة من الحرير ، وبعض أدوات المطبخ ، وقَدراً من الزاد المركّز فى شكل دقيق وحبوب وأقراص ، يكفيه مدة شهر ، مع ما قد يصيده من سانح الطير ، أما سلاحه فكان بندقية ومسدساً وكمية من الذخيرة .

وفى أثناء سيره ، طار به الفكر إلى صحابه وأصدقائه ، وإلى الأندية التى يغشاها ، وإلى الفتاة التى يحبها وكاد يتزوجها لولا أنْ حال القدر بينه وبينها .

ولكن سرْعان ما تبدّدت تلك الأفكار ، وحلّ محلها فكر واحد يحوم حول رجل واحد هو " برام جونسون " الرجل الذئب الذى يعرف عنه وعن سلالته وعن عاداته وأخلاقه الشىء الكثير .

كان " فيلب" يعلم حقَّ العلم ، أن " برام جونسون " فى نظر الهنود والخلاسيّين ساحر يستمدّ قوته من الشيطان ، وأنه فى نظر الشرطة وحراس الأمن ، مجرم خطير يَعيث فساداً فى أصقاع الشمال، فأمنيّتهم الكبرى كانت القبض عليه حياً أو ميتاً ، فمن استطاع منهم تحقيق تلك الأمنية فسوف يُغْمَر بسنىّ الجزاء ، ويرتقى إلى مَنْصِب أعلى من منصبه ، وما زال ذلك الأمل يداعب نفوس أولئك الرجال الشجعان، حتى رجحت كِفّة موته ، وأسدل الستار على فصول روايته، وانقطع القوم عن التفكير فيه .

لم يكن الطمع فى الترقية وكسب المجد والفَخار ، هو ما دعا " فيليب" إلى تقصّى آثار " برام جونسون " بل قل إن قوّة خفيّة هى التى دفعته إلى القيام بذلك العمل .

ومنذ اللحظة التى أمسك فيها " فيليب " بضفيرة الشعر الذهبى فى يده، اضطربت نفسه بشعورٍ جديد غريب ، وكان كلما فكَّر فى ذلك الفخ، تاه فى مجاهل التفكير ، ولَم يقع على رأى يرضيه .

وبينما كان يسير فى طريقه إلى اقتناص " برام جونسون " ، عرضت له مرة أخرى حكاية الشعر الذهبى ، فلام نفسه على جموح خيَاله ، فربما كان " برام " قد عثر على تلك الضيرة بطريقة من الطرائق دون أن يريق فى سبيلها نقطة دم ، أو ربما كان " برام " قد اتخذها تعويذة من التعاويذ التى يحملها منذ سنوات .

فما إنْ وصل " فيليب " فى تفكيره إلى هذا الحل ، حتى هدأ باله ، وسكن جأشه ، ولكنه أراد أن يتثبت من استنتاجه ، فأخرج الضفيرة ليمعن النظر فيها فاحصاً ممتحناً ، فاضطرب كل الاضطراب عندما رآها حديثة القص من شعر امرأة .

فوقف عند هذا الحد من التفكير ، واستخلص لنفسه ما أراد ، وتابع السير مقتفياً أثر طريده ، غير أن العواصف التى توالت عنيفة شديدة مدة ثلاثة أيام ، كانت قد محت آثار الطريد وذئابه من فوق الثلج ، وكان " فيليب " يعتقد مع ذلك ، أن " برام جونسون " لم يبتعد عن تلك الصحراء النائية الضاربة إلى الشمال ، وأنه وجد فيها الملجأ الأمين الذى يحميه من طائلة القانون .

ولكن أنّى له أن يعثر عليه ، فى ذلك القفر الأبيض الذى يبلغ عرضه من الشرق إلى الغرب خمسمائة ميل ، فأدرك " فيليب " أن مهمته شاقة عسيرة ، بل تكاد تكون مستحيلة ، فسلمّ أمره إلى الله ، ولم يقطع الأمل .

وظل " فيليب " يغذّ السير ثمانية أيام كاملة ، فاجتاز نحو مائة وعشرين ميلاً إلى الغرب ، كان الجو فيها صَحْواً بعد العواصف الأولى فلا زوابع تهب ، ولا ثلج ينهمر ، غير أن البرد كان شديداً قارساً .

وبينما كان فى الليلة الثامنة جالساً فى خيمته ، يصطلى بالنار التى

أوقدها ويفكر للمرة المائة فى ضفيرة الشعر الذهبى ، حدث الذى طالما انتظره وتوقعه .

* * *

كانت الليلة صحواً ، والسماء صافية مرصَّعة بالنجوم ، والرؤية ممكنة سهلة ، وبقى " فيليب " جالساً يصطلى ويفكر . وعلى حين فجأة ، هب " فيليب " واقفاً ، وأرهف السمع ، ثم خرج من خيمته ومشى بضع خطوات ، ليستوضح أمر ذلك الصوت الذى خيل إليه أنه سمعه ، فأيقن أن الصوت عواء ذئاب قد تكون منه على بعد ميل أو ميلين ، فانتفض الدم فى عروقه ، وذكّرته طريقة العواء والصوت الآدمى الذى يخالطها ، بما كان " بطرس راسين " قد أخبره به فى أمر " برام جونسون " وطرائق صيده ، فَوثِق كل الوثوق بأن ضالّته المنشودة قادمة إليه .

فأسرع فى العودة إلى خيمته ، وأخمد بقية النار المشتعلة فيها ، ومسح بندقيته وأعدّها للاستعمال ، وخرج بها إلى طَرَف الغابة ، واستند إلى شجرة فيها وقد عزم أن يتسلّقها ويحتمى بهاعند ساعة الخطر .

وما عتّم الخطر أن أقترب منه سريعاً ، فقد لمح الرجل الوحش يقود ذئابه فى اتجاهه ، وعندما أصبحت منه على بعد مئتى خطوة ، تسلق " فيليب " الشجرة فى أنفاس متقطعة ، وقلبه تدق ضرباته دقاً عنيفاً .

ولم تكن تلك الشجرة من الصنوبر البرِّى بالملاذ الحصين ، فقد كان جِذْعها نحيلاً ، وأغصانها نحيفة ، ولكن المضطر يركب الصعب ،

فعلاها فى خفة ورشاقة وارتقب الأحداث .

وسكتت الذئاب عن العُواء ، ففهم " فيليب " أن مطاردة الذئاب للفريسة قد بلغت غايتها ، ولم يعد يسمع إلا وقع حوافر الوعل ، وهى تمزّق الطبقة الرقيقة من الثلج المتجمد على وجه الأرض ، ثم رأى ذلك الوعل يمرّ على مَقْرُبة من مكانه ، ويجدّ فى الهرب إلى ناحية بعيدة من الغابة ، ووراءه نحو عشرين أو ثلاثين ذئباً قد كشّرت عن أنيابها ، وتناثرت فى شكل مِرْوَحة تحاول أن تسدّ عليه الطريق .

فلما ابتعدت تلك الوحوش ، نزل " فيليب " من مخبئه الذى كادت غصونه تتحطم تحت ثقله ، جلس على الأرض متوارياً وراء الشجر ، وأخذ يُجِيل الطرف إلى مَدَى البصر ، متوقعاً أن يبرز له "برام" بين لحظة وأخرى .

ولم يخطئه الظن ، فما هى إلا دقائق معدودات ، حتى سمع وقع قدمين غليظتين ، يتحطم تحتها وجه الجليد ، فازداد قلب " فيليب" خفقانا ، وشكر ربه على حظه السعيد ، فطريدته ستكون منه بعد قليل على قاب قوسَيْن أو أدنى ، والذئاب التى كان يخشاها ، قد أصبحت بعيدة ، فما عليه إلا أن يأسر " برام " ويسوقه إلى رجال الأمن والقانون .

فهبّ " فيليب " واقفاً فى حِرْص وحذَر، وأسند بندقيته إلى جِذْع شجرة ، وأخرج مسدسه من قِرابه وشهره بيده اليمنى ، وانتظر ظهور " برام " جادًّا فى إثر ذئابه .

وبينما كان يحدّق إلى السهل الأبيض ، معتقداً أن يلمح فيما بعد قليل ، خيال " برام " ، إذا به يراه فجأة على بعد عشرين خطوة منه ، فأذهلته المفاجأة ، ونزلت عليه نزول الصاعقة ، وكادت شفتاه تنفرجان عن صيحة الدهش فخنقها فى صدره ، ونظر إلى " برام " فرآه فى ضوء النجوم ، قد وقف على شَرَف من الأرض وأخذ يملأ رئتيه من الهواء ويلفظه فى كرّات متتالية ، ثم رآه قد أرهف أذنيه فى الوجهة التى سارت فيها ذئابه .

وتأمله " فيليب " فوجده عملاقاً حقاً ، قصير اللحية كثيفها ، برّاق العينين بريقَ عيون القطط ، أما ملامح وجهه فتدل على رجل مطارِدٍ ومطارَد، وعلى أنه يجمع فى إهابه صفات الإنسان والوحش معاً .

ووثق " فيليب " أن ساعة العمل قد حانت ، فتحسس بإصبعه زناد مسدسه ، وتقدم بِضْع خطوات .

ولقد كان مَن اليسير على " برام " أن يراه ، لولا أنه مال فى تلك اللحظة برأسه إلى الخلف ، وأطلق فى الفضاء ، وهو ينظر إلى السماء ، صوتاً أشبه بهزيم الرعد ، تحوّل بعد قليل إلى زفير حاد ، فصفير نحيف نقلته الريح إلى عدة أميال من ذلك القفر الأبيض ، فاستولى الدهش غلى قلب " فيليب " ، فما كان قد سمع قطُّ صوتاً مثل ذلك الصوت يطلقه إنسان أوحيوان . . . لقد كان نداء السيد لذئابه ، أو نداء الرجل الوحش لإخوته .

وتوقف " برام " فجأة عن متابعة الدوىّ والصفير ،أتراه نبهته غريزته إلى أن هناك خطراً يتهدّده ؟ وقبل أن يهمّ " فيليب " بعملٍ من الأعمال كان " برام " قد اختفى عن أنظار " فيليب " ، واستبدل بصفيره قهقهةً من الضَّحِك تقشعرّ لها الأبدان ، فاستجمع " فيليب " شوارد فكره وشجاعته وصاح قائلاً :

– " " برام " ! " برام " ! قف . قف . أقول لك قف باسم القانون " .

وسمع " برام " النداء ، ولكنه لم يتوقف ، بل أسرع فى مشيته ، فعاد " فيليب " يصيح وينادِيه باسمه الكامل ويقول له :

– " " برام " ! " برام جونسون " ! "

فلم يظفر " فيليب " بجواب سوى صدى ضَحِك مخيف حَمَلَ فى طياته كل معانى الازدراء والسخرية .

فرفع " فيليب " مسدسه ، ودون أن يسدّد المرمى ، أطلق طلقتين فى اتجاه الهارب ، ثم عاد يصيح للمرة الثالثة :

– " " برام " ! " برام جونسون " ! "

ولكن صياحه ذهب أدراج الرياح ، وانقطعت كل حركة تشعره بأن طريده على مَسْمَع منه أو مَرْأى .

ورجع " فيليب " إلى نفسه ، فأدرك أنه تصرَّف تصرُّف الحَمْقى ، وأنه قام بعمل صبيانى ، وأن صوته وهو ينادى " برام " كان مضطرباً مرتجفاً مما جعل " برام " يسخر منه ، وقد يعود إليه عما قليل هو وذئابه

فيقتصّ منه شرّ قِصاص ، فارتعدت فرائصه ، وازدادت ارتعاداً عندما ذكر مصرع الضابط " لى " يوم أطلق عليه " برام " ذئابه " فناشته بحديد النّيوب ، ومزّقته تمزيقاً ، فأيقن أنه سوف يلقى مثل ذلك المصير بسبب حُمْقه ورعونته .

فعاد " فيليب " إلى خيمته أسفاً نادماً مضطرباً ، وبدأ يزن فى خاطره ما بقى له من أسباب النجاح وأسباب الخيبة ، فعرف أن الخطر محدق به ، لكنه لم يترك اليأس يستحوذ على قلبه ، فالإنسان يجب ألاّ ييأس أبداً فى الحياة .

وقضى بضع دقائق واقفاً فى خيمته ، مُطْلقاً لأفكاره العنان ، شادًّا من حين لآخر على قبضة مسدسه .

والحق إن " فيليب " لم يكن يخشى " برام " ولو عملاقاً وجباراً عنيداً ، وإنما كان يخشى ذئابه ، فقد يطلقها " برام " عليه ويقف بعيداً متفرجاً يثير ثائرته بضحكه الساخر .

ومضى " فيليب " يقلّب الرأى على مختلف وجوهه ، ووقف عند رأى أبرقت له أسارير وجهه ، فقد ذكرأن " برام " لم يكن مسلحاً حينما لاح له فى ضوء النجوم الخافت ، فيستطيع إذن أن يتسلق شجرة من الأشجار ، ويقود منها معركته ، ويقتل الذئاب واحداً واحداً ، ويكتب لنفسه النصر ، وكل ما فى الأمر أن يتأكد من أن " برام " لا يحمل سلاحاً نارياً .

واطمأن إلى هذا الرأى ، فأخذ جُعْبته المملؤة بالذخيرة ، وحمل بندقيته ومسدسه ، وذهب إلى الغابة ، فوقع اختياره على شجرة عالية ، ولكنها نائية عن أخواتها ، فتسلقها وكانت له مرصداً حسناً ، غير أنه رأى نفسه فيها هدفاً سهلاً لو أن مع " برام " بندقية ، فهزَّ كَتفِيه راضياً ، وقنع بهذا الوضع الوحيد الملائم ، ورجا أن تساعده فيه يد الأقدار .

* * *

وطال على " فيليب " الانتظار وهو فى مرصده ، فاستشار ساعته فإذا الوقت منتصف الليل ، فصبّر نفسه على مَضَض ، وكان كلما سمع حفيف الشجر أو صفير الرياح ارتاع وجفل .

وحدث أن مرّت فوق رأسه بومة بيضاء ، وكادت تمسه بجَناحيها ، فانتفض وظن أن ساعة المعركة قد أزفت .

وكان فى أثناء انتظاره ، يحدّث نفسه وشبح " برام " ماثل أمام عينيه ، أتراه خاف من طلقه النارى ؟ فهرب وآثر ألاّ يعود ؟

ولقد بدا له بعد طويل تفكيره ، أن " برام " ليس بالرجل المرهوب جانبه ، وعندما استقر تفكيره على ما لمحه فى قسمات وجهه من علامات اليأس والكآبة ، أخذته الشفقة عليه ، ورثى لحال هذا الآدمى الذى يعيش عيش الوحوش .

وفيما هو فى مثل هذه الأفكار ، ذكر الفخَّ الذهبى ، وذكر معه أنه حديث العهد بالقص ، فجزم أن " برام " لا يعيش وحده ، وأن معه امرأة لها مثل ذلك الشعر .

وبدأ " فيليب " يضيق ذَرْاعاً بالترقب ، فنزل من الشجرة ، وقضى وقتاً طويلاً وهو يجول جيئة وذهوباً فى طرف الغابة ، دون أن يبتعد منها ، حتى شرعت النجوم تتّشح بصُفْرة الفراق ، ويخمد لمعانها ، وحتى بدأ الظلام ينشر أستاره على الكون ، قبل أن تمتد إليها يد الفجر وتتناولها بالشقّ والتمزيق .

وعادت المخاوف تحتلّ قلب "" فيليب " مع عودة الظلام ، توقع أن يستفيد " برام " من العَتَمة فيفاجئه بالهجوم ، فنظر إلى ساعته محملقاً فيها ، فاستطاع أن يعرف أنه فى الساعة الرابعة بعد منتصف الليل ، فرجع إلى شجرته وتسلقها ومكث ينتظر .

ولكن " برام " لم يحضُر ، وكان الفجر قد بدأ يشقّ الظلمة ، ويطلُع على الكون بوجهه الوردى ، فنزل " فيليب " من الشجرة ، وسار إلى خيمته ، وأوقد فيها النار ، وأخذ يعدّ إفطاره وقهوته .

وفى نحو الساعة السابعة ، تأهب لمتابعة السير وراء غريمه ، مسروراً من الفرصة التى أضاعها " برام " فى القضاء عليه مستفيداً من الفرصة التى مكّنه فيها بهربه ، من اقتفاء أثره وكشف السر عن قصة الفخ الذهبى .

ومشى " فيليب "نحو نصف ساعة فى طول الغابة ، حتى بلغ المكان الذى قامت فيه معركة الذئاب والوعل ، فرأى فيه بعض قطع اللحم ، وبعض العظام المحطمة ، متناثرة هنا وهناك ، وشاهد فوق الثلج آثار الدماء ، وبصمات حوافر الذئاب ، ورسم حذاء " برام " الغليظ الضخم .

وقرأ على سطح الثلج سطوراً أخرى من حوادث الليلة الماضية ، فقد علم من الآثار المختلطة والبصمات ، أن " برام " يمتلك مركبة زحافة ، وأنه وضع فيها ما بقى من لحم الوعل بعد أن شبع وامتلأ هو وذئابه ، وأنه أوثقها إلى المركبة ، وسار بها ، على ما يشير إليه الأثر ، إلى الشمال فى اتجاه مستقيم ، فما على الذى يريد أن يلحق به إلا أن يسير وراء الأثر فى تلك الطريق .

فقرر " فيليب " أن يستأنف المطاردة وإن تكن شاقة صعبة بغير مركبة زحافة ، فعاد إلى خيمته فطواها ، وأعدّ ما يكفيه من الطعام لمدة ستة أيام، وحزم أمتعته وسار على بركة الله .

وكان النهار غائما ، والشمس متوارية ، والقفر الأبيض يمتدّ على مَدَى البصر حتى ليختلط بالأفق ، فلم يكد يمشى نحو ساعة فى سكون أشبه بسكون الأموات ، حتى أحاطت به الكآبة من كل جانب ، وضاق صدره بتلك الوحدة القاتلة ، فى صحراء لا نهاية لها تفضى بمن يسلكها إلى الجنون .

فهمّ بأن يعود القَهْقَرى ، فقامت فى نفسه حرْبٌ عَوان بين الإقدام والإحجام ، فانتصر فيها الواجب على غيره من الأسباب ، وتابع سيره إلى الأمام .

وبعد نحو ثلاث ساعات ، لاحظ " فيليب " من الآثار المبصومة على الثلج ، أن مركبة " برام " قد توقفت فى تلك البقعة ، ولكن بقيت الذئاب موثقة بها ، ولاحظ بعد ذلك أن " برام " تبع المركبة ماشياً .

وعندما بلغت الساعة الواحدة بعد الظهر ، استراح " فيليب " قليلاً من المسير ، وجلس يتناول شيئاً من الطعام ، دويقيس فى ذهنه المسافة التى قطعها ، وفارِقَ السرعة بينه وبين مركبة " برام " ، فكاد ييأس من اللحاق به فى ذلك الخِضَمّ الأبيض الذى ينتهى عند القُطْب الشمالى .

وما إن فرغ من تناوله طعامه ، حتى يستأنف السير ، ولكنه اضطرَّ إلى التوقف فى نحو الساعة الثالثة ، عند ما أخذ الثلج ينهمر ويغطيه بردائه الأبيض ، فعزم أن يبنى له ملجأ يتدارى به من الثلج ويقضى فيه ليلته .

وكان قد تعلم من قبائل " الأسكيمو " كيف يبنى ذلك الملجأ ، فانتزع من حزامه فأساً كان يحملها ، وأخذ يحفر بها حفرة فى تلّ من الجليد ، بعد أن اختار الجانب المضادّ للريح منه .

فلما انتهى من حفر ذلك السرداب ، بالقَدْر الذى يلائمه طولاً وعرضاً ، نصب فيه سرير السفر ، وأشعل بعض الحطب الذى كان قد

جمعه من الغابة ، ووضع فوق النار إبريق الشاى بعد أن ملأه بالثلج ، فذاب الثلج ، وغلى الماء ، وشرب صاحبنا ألذّ شاى شربه فى حياته ، ثم تعشَّى وحشا " غليونه " بالتَّبْغ ، وأخذ يدخّن وهو مستلقٍ إلى السرير ، ولم يمنعه فضوله من أن يخرج من جيبه الفخ الذهبى ، ويمعن النظر فيه ثم يعيده إلى جيبه ، ثم قام إلى فتحة الحفرة وسدها بخيمته الحريرية ، وعاد إلى سريره ، واستسلم فيه إلى التعب والنُّعاس ، فغَرِق فى سُباتٍ عميق .

ولم يَصْح إلا فى الصباح ، فطفق يتقلب فى سريره ، ويتحسّس جسده ، ويمر بكفه إلى جبينه مستذكرا ، بعد إذ أدهشه أن يرى كَهْفه مُفْعماً بضوء النهار، فى حين قد سدّ فتحته بخيمته الحريرية ، فنهض من سريره ، ورمى ببصره إلى فتحة الكهْف ، فلم ير الخيمة ، ولشدّ ما جحظت عيناه ، عندما رأى بدلا منها ، رأساً ضخماً وعينين تحملقان فيه ، فاشتبكت نظراته بنظرات " برام جونسون " .

٣

تعوّد " فيلب " فى أثناء قيامه بمهنة الشرطى ، ألاّ يدهش لأمرٍ من الأمور ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، غير أن الصدمة هذه المرة كانت عنيفة جداً ، فكيف لا يذهل من مفاجأة وضعته من طريده وجهاً لوجه .

ولكنه تملك فى الحال أعصابه ، وسكن جأشه ، عندما فكّر لأوّل وهْلَة ، أن " برام " قد فاجأه وهو يغطّ فى النوم ، فلو كان ينوى قتله لفعل دون كبير عَناء .

ولاحظ كذلك ، أن بندقيته التى أسند بها الخيمة عند فتحة الكهف ، قد اختفت هى أيضاً ، فقدر أن " برام " قد استولى عليها ، فلم يستغرب كثيراً ، ورأى فى هذا العمل ضماناً لجأ إليه غريمه .

غير أن الذى أدهشه كل الدهش ، تلك النظرات التى كان ذلك الخارج على القانون ينظر بها إليه ، فما كانت نظرات ظافر منتصر ولاتضمنت شيئاً من الحقد أو سَوْرَة من الهياج ، وإنما كانت نظرات رجلٍ مضطرب قلِق حيران .

ومرّت دقيقة واحدة لم يتبادل فيها الرجلان كلمة من الكلمات ، وامتدت كف " فيليب " عفواً إلى مسدسه ، ولكنه لم يكن ينوى أن يستخدمه ، فقد بدا له أن الكلام أجدى وأفيد فى تلك الحال فقال :

– " أهلاً يا " برام " ! "

فقال " برام " والكلمات تكاد لا تخرج من بين شفتيه :

– " نهارك سعيد . . . سيّد " .

وعلى الفور اختفى رأسه من فتحة الكهف ، فقام " فيليب " يريد الخروج من تلك الحفرة ، فصكّ سْمعَه صوتٌ آخر انحدر إليه من فوّهة الكهف ، وكان عواء الذئاب ، فارتجف فَرَقاً ، وطارت من فؤاده عوامل الأمان التى شعر بها عند لقاء " برام " ، فساءل نفسه :

– " أما كان الأجدر به أن يفرغ رَصاص مسدسه فى صدر ذلك المجرم، بدل الترحيب به وتحيته ؟ وماذا عساه يفعل لو أطلق " برام " عليه ذئابه؟ إنه قد يستطيع أن يقتل منها ذئبين أو ثلاثة ، ولكنه لن ينجو من أنياب البقية ، فعنّف نفسه وقال لها : ها أنا ذا للمرة الثانية أتصرّف تصرّف الحمْقى ، وتأخذنى الرأفة بهذا الخارج على القانون .

ومشى زاحفاً حتى وصل إلى فتحة الكهف ، ومسدسه فى يده ، فلم يرَ فى الخارج شيئاً ، ولاسمع نأمة حىّ سوى عُواء الذئاب ، ولكنه سمع بعد قليل صوت " برام " وهو يقول :

– " سيّدى . . . المسدس . . . السكين . . . أو أقتلك . . . الذئاب . . . جوع شديد . . . "

ولم يكن صوت " برام " شئيا من العنف ولا الوعيد ، ولكن كان فيه لهجة الحزم والإصرار ، مما يدل على أن الأمور ستجرى وفق ما يقول .

وأدرك " فيليب " أن حاله لا تختلف عن حال جرذ فى مِصْيدة ، وأن من الجنون الالتحام بتلك الوحوش فى معركة ، ولاسيما عندما رأى ثلاثة منها تقترب من الكهف ، وتقف على بعد ثلاثين خطوة منه ، ثم ينضمّ إليها رابع فبقية العصابة وتصطفّ على مرأى منه ، وهى تهمهم تارة ، وتعوى أخرى ، وتفتح أشداقها وتطبقها تارة ثالثة ، فتسمع لها طقطقة مخيفة .

وما غاب عن ذهن " فيليب " أن " برام " هو الذى يمنع تلك الوحوش من الهجوم عليه ، وإن لم يسمعه يفوه بكلمة أو يصدر أمراً .

وسمع " فيليب " بعد ذلك دوياً يلعلع فلى الفضاء فوق رؤوس الذئاب ، فتفرقت مستجيبة للدوىّ الذى أحدثه سوط " برام " ، وسمع بعده صوت " برام " وهو يقول له :

– " سيّدى . . . المسدس . . . السكين . . . أو أطلق الذئاب " .

ولم تكد كلمات " برام " تخرج من بين شفتيه ، حتى رمى " فيليب " بمسدسه فوق الثلج وأتبعه بالسكين وقال :

– " إليك المسدس والسكين ، فهل تريد أن أرمى بسريرى أيضاً إلى الخارج ؟ "

فلم يظفر بجواب عن سؤاله ، فكرره ولكن على غير طائل ، ثم شاهد " برام " ينحنى ويلتقط المسدس والسكين ، فسارع إلى الخروج من الحفرة ، وقفز بإزاء " برام " وقال له بعد أن استدار نحوه :

– " صباح الخير يا " برام " ! "

فنظر إليه " برام " نظرة من يهمّ بالانقضاض عليه ، وقال له بصوته الأجش وبلهجة الرجل الخلاسى :

– " لماذا . . . أنت . . . أول أمس . . . أطلقت النار علىّ ؟ "

فقال " فيليب " وهو يحاول أن يبدو هادئاً ساكناً :

– " لأنى كنت أريد أن أتحدث معك ، فلم أطلق النار عليك بل أطلقتها فى الفضاء ".

فقال " برام " وهو يبذل جهداً كبيراً فى لفظ كلماته :

– " كنت تريد أن تتحدث معى ؟ ولماذا ؟ "

فقال " فيليب " :

– " كنت أود أن أسألك لماذا قتلت رجلاً فى منطقة " بحيرة الله " ؟ "

وما كاد " فيليب " يطرح سؤاله حتى ندم عليه ، فقد رأى عينى

" برام " تزدادان بريقاً ، وسَمِعَه يُطْلق من صدره خُواراً كخُوار الثور ويقول :

– " آه ! رجل الشرطة ؟ الذى جاء من " حصن شرشل " وقتلته الذئاب ؟ ! "

ورمى " برام " عندئذ بالمسدس والسكين ، ولم يبق فى يديه إلا السوط والهِراوة ، وكانت الذئاب قد تجمعت فى شكل دائرة وراء " فيليب " فما جرؤ أن يلتفت لينظر إليها ، وكان الخوف كذلك يملأ قلبه من سكونها ، أما هى فكانت تنتظر أمراً من " برام " أو إشارة منه .

واستأنف " فيليب " الحديث فقال :

– " استمع إلىّ يا " برام جونسون " ! إنك فقدت شيئاً فى الليلة التى خيّمت فيها قرب كوخ " بطرس راسين " " .

وسكت قليلاً ثم قال :

– " لئن تبعتك يا " برام جونسون " لقد كنت أبغى أن أردّ إليك ذلك الشىء الذى فقدتَه . فلو كنت أريد قتلك ، لكان ذلك أمراً ميسوراً عندما أطلقت عليك النار ، غير أنى كنت أريد أن أستوقفك لأرجع إليك هذا . . . "

ومد " فيليب " يده إلى جيبه ، وأخرج منه الفخ الذهبى ، وقدّمه إلى " برام جونسون " .

* * *

استولى على " برام " الجمود ، فبقى برهة كالمسمرَّ فى مكانه ، ثم حوّل نظره من " فيليب " إلى الضفيرة الذهبية فاغرَ الفم ، منقطع الأنفاس، وسقط من يده السوط والهِراوة .

وكأنما رؤية الفخ قد سحرته ، فاقترب من " فيليب " . وأخذ الفخ الذهبى دون أن يلفظ كلمة واحدة ، وحملق فيه قليلاً بنظرات غابت منها القسوة ، وحلت محها الرّقَّة التى يمكن أن يعرفها رجل يعيش بين الوحوش .

ووضع " برام " الفخ فى جيبه ، والتقط من فوق الثلج المسدس والسكين وقذف بهما بعيداً ، ثم تناول البندقية وحطمها على ركبته كأنه يحطم عوداً رفيعاً من الحطب ، ومال إلى السوط والهِراوة فاستعادهما ، وضرب الفضاء بسوطه الطويل ، فاصطفّت الذئاب وتأهبت للرحيل ، فأشار " برام " إلى " فيليب " إشارة عرف منها أنه يدعوه إلى السير نحو الشمال، فأذعن لمشيئته مطمئنًّا إلى أنه لا يريد به سوءاً ، مادام قد حطم أدوات السلاح . ومشى " برام " وراء " فيليب " ، وسارت الذئاب وراء " برام " وكان ترتيب هذا الموكب يدل على أن ذلك الخارج على القانون لا يسوق معه صديقاً بل أسيراً، ولكن لماذا حَقَنَ دمَه وأبقى على حياته ؟ إنه سرّ من الأسرار .

وبعد أن مشى الموكب نحو ميلين ، التقى بالمركبة الزحافة التى كان " برام " قد تركها فى ذلك الموضع ، عندما جاء هو وذئابه فى الليل

يستطلع شأن الرجل الذى يطارده ، لأنه كان يعلم أن الغريب لابد أن يقتفى أثره ، فصحت خُطَّة الرجل الوحش ، وأثنى عليها " فيليب " فى قرارة نفسه الثناء الجميل .

وشرع " برام " يوثق ذئابه إلى المركبة ، وهى تطيعه طاعة عمياء، وتستمع إليه وهو يحدثها بلغة " الأسكيمو " كأن بينهما أخوَّة ومودّة .

وحاول " فيليب " عندما همَّت المركبة بالسير ، أن يقطع حبل الصمت ، ويستخلص من " برام " بعض الكلام فقال له :

– " لو كنت تعتقد حقاً ، أنى كنت أبغى قتلك ، عندما أطلقت عليك النار، فلماذا لم تثأر لنفسك ، ولماذا لم تطلق علىّ ذئابك كما فعلت مع سواى ؟ لماذا جئت تحاصرنى فى اليوم التالى فى ملجئى ؟ ثم إلى أين نحن سائرون ؟ "

فمدّ " برام " ذراعه مشيراً إلى الصحراء وقال :

– " إلى هناك " .

ولم يجب عن بقية الأسئلة .

ثم أشار إلى " فيليب " بركوب المركبة ، فأطاع وجلس خلفه ، ودوّى سوط " برام " فانطلقت الذئاب بها إلى حيث يريد صاحبها .

وكان " فيليب " فى أثناء السير يطيل النظر إلى كتفى " برام " العريضتين وإلى ظهور الذئاب ، ويفكر فى التعاون القائم بين الإنسان والحيوان ،

فى عالم يسوده الصمت والعدم ، فعجب من تصاريف الأقدار ، ورثى لحال هذا المسكين ، حتى كاد ينسى أنه من رجال الأمن والقانون ، وأن مهمّته تقضى عليه بأن يقود " برام " إلى رؤسائه حياً أو ميتاً .

واستبدّت به الشفقة على هذا الرجل ، فما عاد يعدّه مجرماً من المجرمين، بل أخذ يرى فيه أحد المساكين التاعسين .

واعترض تفكيره خيال الفخ الذهبى ، والسرّ الذى يحيط به ، فأيقن أن " برام " إنما يقوده بمثل هذه السرعة إلى مصدر ذلك السرّ .

وبينما كانت المركبة تسير مسرعة فوق الجليد ، حاول " فيليب " غير مرة ، أن يجاذب " برام " الحديث ، ولكن بقى " برام " صامتاً كالقبر، لا تتفرج شفتاه عن كلمة من الكلمات ، واستمر يقود المركبة فى سرعة جنونية، ويضرب بسوطه الهواء حيناً بعد حين .

وكان " برام " بعد أن حطم بندقية " فيليب " ، وقذف بالمسدس والسكين ، قد احتفظ ببندقيته العتيقة ، ووضعها إلى جانبه فى المركبة ، وكان " فيليب كلما نظر إليها ، ساءل نفسه : لماذا أبقى " برام " على هذا السلاح العتيق الطراز وحطم البندقية الجديدة التى كانت فى حوزته ؟ وكثيرا ما حدثته نفسه بأن يختطفها ويفرغ رصاصها فى جسم " برام " .

وعلى حين فجأة ، وقف " برام " المركبة ليريح ذئابه قليلاً من عناء المسير، فوثب " فيليب " إلى الأرض ، وأخذ يحرّك ساقيه وقدميه بعيداً بطبيعة الحال بعيدا عن الذئاب ، ثم رأى " برام " يشير إلى البندقية ويقول له :

– " لماذا . . . يا سيّد . . . لم تخطف البندقية . . . ولم تظلق علىّ الرصاص من الخلف ؟ "

فقال له " فيليب " :

– " لأنك لم تشاء أن تقتلنى عندما فاجأتنى وأنا نائم ! " ثم أمسك بذراعه وقال :

– " لماذا تريد أن تلتزم الصمت ؟ لماذا لا تريد أن تتكلم ؟ إن الشرطة تعتقد أنك انتقلت إلى عالم الأموات ، فأطلعنى على جلية أمرك وعد إلى عالم الإنسان . . . ثم قل لى إلى أين نحن سائرون ولماذا ؟ "

فقهقه " برام " ضاحكاً ، ثم التقط البندقية وفتح مخزنها ، فكان فارغا من الرصاص ، فأدرك " فيليب " أن " برام " كان قد وضع البندقية فى متناول يده لكى يمتحنه ويجرّبه ، وتلك ولا شك حيلة رجل سليم العقل والفكر .

وعاد الموكب بعد قليل يستأنف المسير ، وظل يجتاز القفر الأبيض متّجهاً إلى الشمال طوال النهار ، حتى غابت الشمس وهبط الظلام ، فوقف " برام " المركبة مرة أخرى لينال هو ورفيقه وذئابه قِسْطاً من الراحة ، فسأله " فيليب " قائلاً :

– " كم قطعنا من مسافة ؟ "

فقال " برام " دون تردد :

– " خمسين ميلاً يا سيّدى " .

فسأله " فيليب " ثانية :

– " وكم ميلاً بقى علينا أن نجتاز ؟ "

فلم يجبه " برام " ولكنه حملق فى " فيليب " وقال :

– " أنا قتلت الرجل . . . وهو سرق منى سكينى . . . هو قال لى إنى كذّاب . . . لهذا أنا قتلته " .

وتناول " برام " قطعة من لحم الوعل الذى جلبه معه فى المركبة ، وشرع يأكلها نيّئة ، كما فعل عند الظهر فى الوقفة الأولى ، والدم يلطخ فمه ووجهه ويده ، فتقزز " فيليب " من هذا المنظر ، ولكن الجوع كان يقرص بطنه ، فتناول بعض الطعام من كيس زاده فأكله ، وقدم منه إلى " برام " فازدرده مسروراً .

وفهم " فيليب" من ذلك الإنسان الوحش ، أنهما سيقضيان الليل فى تلك البقعة ، ورآه قد حفر حفرة فى الجليد لينام فيها ، فتدثر " فيليب" بكيس من الجلد كان معه ، واستلقى به إلى الأرض ، وتغطى بخيمته واستسلم إلى الرقاد .

وأيقظه " برام " عند منتصف الليل واستأنف الموكب السير ، فأشعل " فيليب " عود ثقاب ، ونظر فى إبرته المغنطيسية ، فعرف أن السير قد انعطف شمالاً بغرب .

وفى نحو الساعة الخامسة من الصباح ، لاحت له غابة صغيرة قام فى وسطها كوخ صغير ، فانتعش " فيليب " بهذه اللُّقْيَا ، ومنّى نفسه

بالراحة بعد هذا العناء ، ولكن سرْعان ما تبددت أحلامه ، فقد كان الكوخ مهجوراً تغطى بابه الثلوج ، ولا حركة فيه ولا حياة ، فاجتازه " برام " ولم يعرّج عليه .

وفى الساعة الثامنة من هذا الصباح ، دخلت المركبة غابة أخرى، ورأى " فيليب " كوخاً آخر يقوم فى وسطها ، وبدا له أن الحياة تدبّ فيه ، فقد كانت مدخنته تقذف فى الفضاء أمواج الدخان ، فوقف " برام" المركبة على بعد بضع خطوات من الباب الخارجى ، وأدخل ذراعه فى شقّ إلى جانبه ، فشد العارضة وانفتح الباب .

ولاحظ " فيليب " أن " برام " قد انبسطت أسارير وجهه ، والتمعت عيناه ، ولاحت على شفتيه ابتسامة الرضا ، فتوجَّس خِيفة من تلك الغِبْطة البادية على وجه الرجل ، وتأهّب للطوارىء .

وتطلع " برام " إلى الكوخ ، وإلى الدخان المتصاعد من مدخنته ، ثم التفت إلى " فيليب " وقال له :

– " سيّدى . . . أنت تذهب إلى الكوخ " .

فدخل " فيليب " من الباب الخارجى ، ومشى قليلاً فى الممشى المؤدِّى إلى الكوخ ، ثم توقف مستطلعا نيَّة " برام " .

فمدّ هذا ذراعه مشيراً إلى الكوخ وقال :

– " إلى الكوخ . . . ياسيدى . . . سأطلق الذئاب . . . "

واجتهد " فيليب " فى إخفاء اضطرابه ، وتصنَّعَ الهدوء والسكينة

ولح بين الباب الخارجى وباب الكوخ آثار أقدام خطَّت على الثلج شبْه دَرْب طويل ، وعرف من صِغَر الأثر أنه رسم مداس امرأة ، فمشى فى ذلك الدَّرْب إلى الباب الذى يحجب وراءه الأسرار ، ودخل منه إلى الكوخ مذعناً لمشيئة " برام " ، ولم يكد يخطو إلى العتبة حتى أغلق الباب وراءه .

وقهقه " برام " عندئذ يضحك ضحك الفوز والنصر ، والتقى " فيليب" فى تلك اللحظة وجهاً لوجه بسرّ الفخ الذهبى .

* * *

كان لذلك الكوخ نافذة واحدة تفضى إلى جهة الشرق ، وكانت أشعة الشمس الباهتة تتسرَّب منها وتنصبّ على حاجز يقابل تلك النافذة ، وكان فى وسط ذلك الحاجز باب مفتوح وقفت فى وسطه فتاة فى ريعان الشباب ، تدلَّى شعرها الذهبى على كتفيها وصدرها حتى بلغ الخصر ، وبدت فى شعاع الشمس المنعكس عليها شعلة متوهجة من اللهَب .

بهر " فيليب " جمال الفتاة وإشراقها ، ولاح له أن شعرها الأشقر هو من صنف الشعر الذى صنع منه الفخ الذهبى ، وشعر أن وراء بَشَرتها البيضاء ، وقسمات وجهها الجميل ، وخدها الوردىّ المشوب بشىء من صُفْرة الشحوب ، نفساً تتعذّب وفؤاداً يحزّ به الألم .

فلم تكد الفتاة تراه ، عقد لسانها الدهش ، ونظرت إليه حائرة

مشدوهة ، فقال لها بصوت هادىء لطيف :

– " لاتخافى يا آنسة . . . أنا الشرطى " فيليب برانت " " .

فلم تُحِر الفتاة جواباً ، وماذا عساها تقول وقصة أسْرِها تُقرأ فى عينيها ، ولكنه كان يطمع مع ذلك أن يسمعها تتكلم ، فأعاد إلى سمعها الكلمات التى فاه بها ، فتنهدت الفتاة تنهّدة عميقة ، ثم جرت إلى النافذة ، وانحنت تنظر منها إلى الخارج ، فرأت " برام " يدخل الذئاب إلى داخل السور المحيط بالكوخ ، فالتفتت إلى " فيليب" خائفة مذعورة، فهم بأن يمشى إليها ، ولكنه ما كاد يخطو خطوة واحدة حتى ارتدّت إلى الوراء ، ومدّت ذراعيها كمن يريد أن يمنعه من الاقتراب منها، وانفرجت شفتاها عن صيحة أليمة .

فوقف " فيليب " فى مكانه ، وفتح مِعْطفه ، وانعكست أشعة الشمس على شارة الشرطى التى يحملها فوق سِتْرته ، وأراد أن تراها الفتاة لتطمئن إليه ثم قال :

– " أنا " فيليب برانت " من رجال الشرطة . . . جئت إلى هنا حتى أساعدك إذا كنت فى حاجة إلىّ . . . لقد كان فى وُسْعى أن أقبض على " برام " وأن أقتله ، ولكننى لم أفعل بغية الوصول إليك ، فلماذا أنت هنا مع مجنون ومجرم ؟ "

فنظرت إليه الفتاة طويلاً ، وقرأ " فيليب " فى عينيها أسطر الثقة والاطمئنان ، ورآها قد استدارت إلى النافذة وأخذت تتكلم فى سرعة

وحماسة ، بلغة لم يفهم " فيليب " منها شيئاً .

وكأنما عرفت أنه لم يفهم حديثها ، فجرت إليه فجأة ، ووضعت إصبعها على شفتيه ، ثم وضعتها على شفتيها وهى تهز رأسها ، ففهم " فيليب " أنها تود أن تحدثه ويحدثها ، غير أنه لا سبيل إلى ذلك لأنهما لا يتكلمان اللغة نفسها ، فملأ الغيظ قلب " فيليب" وأسف أشد الأسف .

وفى هذه اللحظة ، سُمع عند الباب وقع قدمى " برام " الغليظتين فغامت عينا الفتاة ، ركضت تتوارى وراء الحجرة التى خرجت منها عندما دخل " فيليب " الكوخ .

وفتح " برام " الباب ثم أغلقه بعد دخوله ، واستطاع " فيليب " أن يلمح من الفتحة الخاطفة ، قسما من الذئاب تتطلع إلى داخل الكوخ بعيون حُمْر متوحشة .

وكان " برام " يحمل فوق ظهره كيساً ضخماً يحوى كل ما كان فى المركبة ، فألقى به إلى أرض الكوخ ورمى بنظراته إلى الباب الذى تحتجب وراءه الفتاة .

ولم يتبادل الرجلان كلمة واحدة ، ولقد كان " فيليب " فريسة لمختلف الهواجس والظنون ، وعاد يرتاب فى أمر الرجل الوحش ، ولاسيما بعد أن رأى عينيه تلتمعان ببريق غريب ، وكم ودّ لو كان فى حَوْزَته سلاح من الاسلحة فيقضى به على ذلك الوحش الضارى ، فأجال طَرْفه

فى أنحاء الكوخ ، فوقع بصره على كومة من الحطب ، فقرر أن يستخدم عوداً صلباً منها فى الوقت المناسب .

وقطع عليه تفكيره ، عودة الفتاة إلى الظهور من باب الحجرة التى كانت قد دخلتها منذ قليل ، فرآها تبتسم وتقترب من " برام " وتحدّثه حديثاً لم يفهم منه " فيليب " كلمة واحدة ، فما هو بلغة " الأسكيمو " ولا بلغة القبائل الهندية المنتشرة فى تلك الأصقاع ، ولا هو لغة فرنسية ولا ألمانية ولا أية لغة كان قد سمعها من قبل .

وبدت على " برام " أمارات الاغتباط ، ولم تكن الفتاة فى مظهرها أقل اغتباطاً منه ، مما حيّر " فيليب " وأضاع منه سلامة الحكم .

وساءل " فيليب " نفسه قائلاً : تُرَى هل يعرف " برام " هذه اللغة التى تخاطبه بها الفتاة ؟ وما له لم يجبها عن كلامها بسوى صيحة تضمنت كل معانى الفوز والانتصار ؟

وانحنى " برام " إلى الكيس الملقى على الأرض وفتحه ، وبدأ يفرغ محتواه ، وتلاقت نظرات " فيليب " والفتاة من فوق ظهر " برام " ثم رآها قد شبكت يديها فوق صدرها ، وتوسلت إليه بعينيها أن يفهم موقفها ، ففهم "فيليب " أن الفتاة تتصنع الابتسام لتدخل فى روع الرجل الوحش أنها سعيدة هانئة .

وبلغ اليأس من " فيليب " مبلغه ، فأشار للفتاة بعينيه إلى كومة الحطب ، كمن يقول لها أأستفيد من انحناءته وأهشم رأسه بعود من

تلك العيدان ؟ فهزت الفتاة رأسها نفياً ، وبان عليها الجزع من تنفيذ تلك الفكرة .

ثم هتفت بصوت ضعيف قائلة :

– " توسى ، توسى ، هان أر توسى . . . "

وبعد أن لفظت هذه الكلمات ، وضعت كفيها على جبينها ، وضغطت على منابت شعرها ، وكأنها تقول " لفيليب " أن " برام " رجل مجنون .

فضرب " فيليب " جبينه بكفه ، كأنه يقول لها إنه فهم كلامها، وهزّ رأسه هِزّة أفصح بها أنه لن يتناول " برام " بأذى ، فتنفست الفتاة الصّعَداء ، وضحكت عيناها سروراً ، فلعبت الغَيْرَة والحَيْرة بقلب " فيليب" ، وازداد فى نظره سرّ الفتاة غموضاً ، فما شأن هذه الفتاة ؟ وماذا يربطها برجل وحش مجنون مثل " برام " ؟

وكان " برام " قد انتهى من إخراج ما فى الكيس من مؤن و زاد وطعام فلمعت عينا الفتاة فرحاً وهى تنظر إلى صنوف الطعام ، نظرات تدل على الجوع الشديد ، فأيقن " فيليب " أن " برام " لم يجازف بالذهاب إلى الجنوب ، إلا فى سبيل هذه الفتاة ليجلب لها منه الطعام الذى تؤثره ويأكله عامة البشر .

* * *

مضى " برام " إلى الموقد ، وأشعل فيه النار ، ثم أخذ بعض الآنية

وخرج من الكوخ ، فخلا الجو للفتى الشرطى والفتاة الأسيرة ، وراح " فيليب " يغمر الفتاة بنظرات التساؤل والاستغراب ، مدهوشاً من هذا العطف الذى تبديه فتاة جميلة مثلها نحو مخلوق هو أقرب إلى الذئاب منه إلى بنى الإنسان .

ولم يغب عن الفتاة ما يجول بخاطر " فيليب " ، فأقبلت عليه وأمسكت بذراعه ، وقادته إلى الحجرة الصغيرة التى خصصها بها " برام " وأرته ما أعدّه لها فيها من أسباب الراحة ، مما يدل على شدة عنايته بها ، فأجال " فيليب " طرفه فى أرجاء الحجرة فلم ير فيها إلا كرسياً ضخماً ، ومنضدة مصنوعة من أغصان الصنوبر ، وعددا من جلود الدّببة مفروشة على الأرض مثل البساط . وكان على الجدران بعض الملابس معلَّقة فوق علاقات بدائية ، استرعى نظره منها وشاح من الفرو ، ومعطف ذو حزام من نسيج أحمر .

والتفت " فيليب " إلى الفتاة وحملق فى عينيها وقال :

– " نعم . نعم . فهمت . . . إنك لا تريدين أن أدق عُنق " برام جونسون " . . . ولكن كيف أفسر خوفك عليه . . . لقد كنت أتعقب بعض الهنود ، فرمتنى الأقدار فى طريق مجرم مجنون ، وكتبت لى أن أراك فى كوخ هذا المجنون ، وتمثلتك مَلَكاً واقفاً عند باب الجحيم . . . ثم عرضت عليك أن أنقذك منه فأبيت . . . "

وكان وجه الفتاة وهى تسمع لكلمات " فيليب " يعبر عما يجيش

فى فؤادها من مضطرب الشعور ، وكانت تحاول أن تقرأ فى عينى محدثها معنى الكلام الذى تلفظه شفتاه .

وأردف " فيليب " قائلا :

– " إن صمتك يحيرنى ، أفلا تستطيعين أن تفهمينى من أنت ومن أين أتيت ؟ "

وتوقف " فيليب " قليلا ، لعله يسمع الجواب عن سؤاله ، فلم يفز إلا بابتسامة حلوة افتر عنها ثغر الفتاة الجميلة ، ثم خرجت من الحجرة إلى بهو الكوخ ، وتبعها " فيليب " وقد لمع فى ذهنه خاطر فجائى ارتاح له ، فأخذ يقرع صدره وهو يقول :

– " " أنا فيليب برانت " . . . " فيليب برانت " . . . " فيليب برانت " . . . " فيليب برانت " " .

وكرر اسمه عدة مرات أخرى وهو يشير إلى نفسه بإصبعه كل مرة .

وأضاء وجه الفتاة بالنور الذى غمر ذهنها ، فلفظت اسمه ثم أشارت بإصبعها إلى صدرها وقالت :

– " " إيفا أرمين " " .

فكاد " فيليب " يُجَنّ من الفرح ، وشرع يردد اسم الفتاة ويقول :

– " " إيفا أرمين " . . . " إيفا أرمين " . . . " إيفا أرمين " " .

وكان كلما ذكر الاسم مرة ، هزّت الفتاة رأسها موافقة مؤمّنة .

٤

رجع " برام " بعد قليل ، ومعه الإناء مملوءاً بالثلج ، ليشرب منه الشارب . بعد إذ يحول إلى ماء ، وأنهى إلى " فيليب " والفتاة أن قد حان موعد الغداء ، فجلسا يأكلان من زاد " فيليب " ومما كان " برام " قد جلبه معه من طعام ، فى حين جلس هو القُرْفُصاء بإحدى زوايا الكوخ ، وبصره مشدود إلى الفتاة لا يتحول عنها ولا يَريم .

وعندما شبع رفيقا الطعام ، تركهما " برام " وخرج ثانية من الكوخ وبقى " فيليب " والفتاة وحدهما مرة أخرى ، وفى نفس كل منهما الرغبة الملحَّة فى التفاهم ، ولكن أين السبيل إلى ذلك ؟

ومشيا معاً إلى النافذة ، فرأيا " برام " يوزع قطع اللحم على قطيع الذئاب الملتفّ حوله داخل أسوار الكوخ ، وعَمَد " فيليب " فى

هذه الأثناء إلى ضفيرة من ضفائر الشعر المسترسلة على كتفى الفتاة ، فحلَّها فى ارتباك وخجل ، والفتاة تنظر إليه مستغربة ، ثم نزع منها بعض الخيوط ، وصفرها حبلاً يحاكى فى حجمه الحبل المصنوع منه الفخ الذهبى، ولفت نظر الفتاة إليه وهو يشير إلى " برام " .

ففهمت الفتاة مقصده ، وقالت له بالإشارة والحركة إن الفخ مصنوع من شعرها ، وزادت على ذلك بأن طأطأت رأسها ، وأرته مواضع كثيرة منه مقصوصة الجدائل ، ففهم " فيليب " أن هناك أكثر من فخ صنع من شعر هذه الفتاة .

ثم سمع " فيليب " صوت الفتاة يتهدّج وهى تخاطبه قائلة :

– " " فيليب برانت . . . أمريكا " " .

وأتبعت كلماتها بأن أشارت إلى نفسها وقالت :

– " " إيفا أرمين . . . دانمرك " " .

فصاح " فيليب " صيحة الظفر وقاال :

– " " دانمرك " . . . أصحيح هذا ؟ أأنت من " الدانمرك " ؟ من " الدانمرك " ؟ "

فهزت الفتاة رأسها بالإيجاب وقالت :

– " " كوبنهافن – دانمرك " " .

فقال " فيليب " وهو يكاد يطير من الفرح :

– " " كوبنهاج – دانمرك " " . . . الحمد لله ! ها نحن أولاء قد بدأنا نتكلم ونتفاهم يا " إيفا " . . . فأنت إذن من " كوبنهاج " فى " الدانمرك " ولكن هذا لا يفسر لى سبب وجودك فى هذا المكان وكيف وصلت إليه ؟ "

وأشار لها بيده إلى أرض الكوخ والجدران فقالت :

– " " كوبنهافن – موسكوفاس– سان بترسبورج – روسلاند – سيبريان – أمريكا " " .

فخيل إلى " فيليب " أن الفتاة تهزأ به أو أن بها مساً من الخبَل، فكيف يصدق أن الفتاة خرجت من " الدانمرك " ووصلت إلى " كندا " مجتازة " روسيا " و" سيبيريا " ؟ ثم كيف يفرض وجودها فى بقعة جرداء من بقاع هذه القفار البيض ، بين جدران كوخ رجل مجنون ؟

وتذكر" فيليب " أن فى جيبه خريطة جغرافية صغيرة للقارات الخمس ، زوّدته بها إدارة الشرطة فيما زوّدته به ، فأخرجها وقدّمها إلى " إيفا " ، فنظرت فيها قليلاً ثم وضعت إصبعها الصغرى فوق مدينة "كوبنهاج " ، وانتقلت تلك الإصبع بعد ذلك إلى " موسكو " ، فإلى "سان بترسبورج " ، ثم جرت عبر " روسيا " و " سيبيريا " حتى وصلت إلى خليج " بيرنج " . وهنا ترددت الفتاة قليلاً قبل أن تضع إصبعها على البقعة الخضراء التى هى " ألاسكا " ، وكأنما أرادت أن تخبره كيف انحدرت من " ألاسكا " ، فصحبت " فيليب " إلى النافذة ، وكانا قد

ابتعدا منها ، ودلَّت بإصبعها على المركبة والذئاب ، ففهم " فيليب " أنها جاءت من " ألاسكا " إلى " كندا " بمركبة زحافة تجرها الكلاب .

وحاولت الفتاة بعد ذلك أن تطلعه على سبب سفرها من بلادها ، وأن تروى له الحوادث التى أوقعتها فى يد " برام جونسون " ، فأدارت ظهرها إلى النافذة ، وأخذت تتكلم باللفظ والإشارة ، وتقص عليه المأساة التى عاشتها ، وصدرها يعلو ويهبط من شدّة التأثر والهياج ، وصوتها يقطعه النشيج والزفرات .

ودوّت فى تلك اللحظة خارج الكوخ قهقهة عالية ، أطلقها " برام جنسون " فعدّها " فيليب " سخرية به وإهانة له ، فغلى الدم فى عروقه ، وقفز إلى الموقد ، وانتزع منه عوداً طويلاً من الحطب المشتعل ، وخرج به من الكوخ راكضاً هائجاً غير حافل بصيحات التوسل المنطلقة وراءه .

ولم يكد يخرج من الكوخ حتى هاجمته الذئاب منقضّة عليه ، فلم يمنعها هذه المرة صوت " برام جونسون " بل وقف وقْفة المتفرج يشهد المعركة ، فى حين كان الدم قد جمد فى عروق " إيفا " فتابعت صرخاتها ولم يرد عليها إلا الضحك الساخر يقهقه به الرجل الذئب .

لم تَخُر عزيمة " فيليب " إزاء الخطر ، ولا خانته شجاعته ، فرفع العود الملتهب وأداره فوق رأسه عدة مرات ، وقذف به قطيع الذئاب ، وأشاع بينها الاضطراب لحظات قصاراً اغتنمها " فيليب " وطار بسرعة البرق عائداً إلى الكوخ ، وأغلق الباب وراءه ، وهبَّت " إيفا " توصده بالمزلاج الخشبى .

وما هي إلا ثوان معدودات ، حتى كرّت الذئاب على باب الكوخ توسعه دفعاً وضرباً ارتج له الكوخ بأسره ، فتطلع " فيليب " إلى " إيفا " فرآها شاحبة اللون ، تفصح عيناها عن الخوف والملامة ، فأدرك " فيليب " ما يجول بخاطرها ، فلو أن الذئاب افترسته لاضمحل معه أملها فى النجاة، فعنف نفسه على تهوّره وأقبل على الفتاة وأمسك بكتفيها مبتسماً لها ، فعادت إلى إشراقها فقال لها :

– " يسعدنى يا " إيفا " أنك لا تفهمينى حتى لا تهزئى بما أنا قائل لك . . . لقد عرفتك منذ ساعات وهاهو حبك يملأ شغاف قلبى . إنى أحبك يا " إيفا " . . . " وتوقف " فيليب " عن الاسترسال فى بث غرامه ، لما سمع صوت " برام " يحدّث ذئابه ويأمرها بالابتعاد عن باب الكوخ فأذعنت له غاضبة مُحْنَقة .

ومدّ " برام " ذراعه من بعض االفتحات إلى المزلاج ، فشدّه ودخل الكوخ ، وتأهب " فيليب " للقاء " برام " مستعداً لكل طارىء ، ولكن " برام " تجاهله ولم يكترث له ، ومضى يذرع الكوخ وهو يتمتم بألفاظ لا تفهم ، وتملك الجزع فؤاد " إيفا " فدخلت حجرتها ، وعادت منها بعد قليل وفى يدها ضفيرة صغيرة من شعرها الذهبى ، فاقتربت من " برام " وأخذت تلوح له بها .

فانقطع " برام " عن التمتمة ، وتهلل وجهه ، ومد يده يستلم الضفيرة التى كان لها فى نفسه سحر التعاويذ ، فسرّت الفتاة وعاودتها الابتسامة ،

وجلس الرجل الوحش فى زاوية من زوايا الكوخ ، وشرع يصنع من تلك الضفيرة فخاً جديداً ، ثم نهض وخرج من الكوخ فسارع " فيليب " و"إيفا" إلى النافذة فرأياه يغادر الباب الخارجى ، ويخرج معه عشرة من ذئابه العشرين ، ثم يغلق الباب على العشرة الباقية ويتركها تمرح حوالى الكوخ داخل الأسوار ، فعرف " فيليب " أن هذا المجنون لايعدّه ويعدّ الفتاة معه ضيفين عليه ، بل أسيرين عنده ، فالتفت إلى " إيفا " فإذا فى يدها ورقة قد رسمت عليها رأس وَعْل ، معربة بذلك عن أن " برام " قد ذهب للصيد، فضحك فيليب حتى كاد يستلقى ، وسرّه أن يضاف الرسم إلى وسائل التفاهم مع هذه الحسناء الشقراء . . .

* * *

قضى " فيليب " ليلته فى ذلك الكوخ ، ونهض فى الصباح وعاد يفكر فى حقيقة " برام " ويسأل نفسه أتراه مجنوناً حقاً أم يتصنع الجنون ؟ ولم ينس " فيليب " أن " برام " يعتقد أنه حاول قتله ، وأن المجانين لا ينامون على ثأر ، فقرّ قراره على أن يقتل " برام " قبل أن يسبقه إلى الانتقام منه ، وندم على أن أضاع كثيراً من الفرص كان يستطيع فيها أن ينقذ البشرية من هذا المجرم المجنون .

ولاحت له عندئذ " إيفا " الشقراء خارجة من حجرتها ، صبيحة الوجه متألقة القسمات ، فحيَّته وحيَّاها ، وتناولا القليل من طعام الإفطار ثم طلب " فيليب " من الفتاة أن تصحبه فى تفتيش الكوخ لعله يعثر فيه

على شيء يفيده ، فسارت معه وشاطرته البحث والتنقيب فى كل ركن وزاوية ، وفى كل خزانة ومخبأ ، فلم يعثرا على شيء ذى بال ، وعلى حين فجأة صاح " فيليب " صيحة الفرح والظفر ، فقد وجد تحت مِعْطف عتيق قذِر ممزَّق ، مسدساً قديماً ولكنه كان خالياً من الرصاص .

وكانت الذئاب فى تلك اللحظة تثير الضجة والجلبة خارج الكوخ ، فجرى " فيليب " إلى النافذة ليستطلع أمر ذلك الضجيج ، فرأى ذئبين منها يطصرعان ويتعاركان ، وبقية الذئاب قد تحلقت حولهما تشاهد ذلك الصراع ، إلا ذئباً واحداً ضخم الجثة ، كان قد انتحى ناحية ، يجرد بأنيابه الحادة عظماً كبيراً من بقايا اللحم التى عليه .

وأوحى إليه هذا المنظر بخُطَّة النجاة من " برام " وذئابه ، فقال فى نفسه : متى خلصت من " برام " ، فمن السهل أن أخلص من هذه الذئاب ، فالحيوان مثل الإنسان يحتاج إلى الطعام حتى يعيش ، ولسوف أترك هذه الذئاب تموت جوعاً ، فقبل كل شيء يجب أن أفرغ من " برام" وأزهق روحه ، أما إذا عاد إلى الكوخ ومعه بندقيته ، فسوف يمكّننى من قتل هذه الذئاب واحداً واحداً ، بعد أن أصفى حسابى معه ، ولكننى ما رأيته قطّ دخل الكوخ ومعه بندقية .

وبينا كان " فيليب " مستسلماً إلى مثل هذه الأفكار ، نادته " إيفا " باسمه ، فاختلج سروراً بذلك النداء ، وسارع إليها فقدمت له

مجموعة من الأوراق ، فى كل ورقة منها رسم من الرسوم ، ولاحظ على تلك الأوراق أنها قد سبق تداولها ، وأنها تكاد تكون ممزقة الجوانب ، فألقى إليها نظرة الفاحص ، فإذا هى تَرْوى بما عليها من رسوم ، قصة تلك الفتاة الشقراء ، فالتفت إليها وقال :

– " أجل . إنك رسمت هذه الرسوم ليطَّلع عليها " برام " فيعرف كيف وصلت إليه ، فهو إذن لا يعلم من أمرك أكثر مما أعلم . . . حسن . . . هيَّا ننظر فى هذه الأوراق ونستخلص حكايتك مما رسمت فيها من مراكب وكلاب ورجال ومعارك . . . "

وكانت " إيفا " تضطرب ، راجية أن يفهم " فيليب " من تلك الرسوم ما تعجز عن بيانه بلغة اللسان .

وعاد " فيليب " يقلب النظر فى الأوراق ويقول :

– " هذه " أنت " فى وسط هذا الرسم الأول ، وهذا شعرك المسترسل على كتفيك . . . إنك تحاولين أن تتفادى جماعة من الرجال تنهال عليك بضربات العِصىّ . ولكن ما معنى هذا يا ربى ؟ أرى فى زاوية هذه الورقة صورة مركب ، ويلوح أن المركب يجب أن يكون أولا . . . فأنت نزلت من هذا المركب أجل من هذا المركب من هذا المركب . . . "

فقالت الفتاة وهى تشير بإصبعها إلى المركب :

– " " سيبيريان " " .

ففهم " فيليب " أن الفتاة كانت قد اجتازت " سيبيريا " وأنها ركبت

بعد ذلك أحد المراكب فنقلها إلى الشاطىء الأمريكى .

ومضى " فيليب " يفحص بقية الأوراق ، فكانت كل الرسوم فيها رسوم معارك ، ولكنه لم يستطع أن يفهم سبب تلك المعارك ومداها ، ورأى " فيليب " فى الورقة الأخيرة من تلك الأوراق ، رسم مارد من الرجال يصحبه قطيع من الوحوش ، فعلم أنه " برام " وذئابه ، وفهم لماذا كانت الفتاة تمانع فى أن يصاب بسوء ، فقد كان أنقذها على ما تشير إليه الرسوم السابقة من مسير مشئوم ، وجاء بها إلى كوخه القائم فى صحراء جرداء ، ولكن لماذا احتفظ بها فى كوخه المعزل ؟ إنه السر الذى لاتفصح عنه هذه الرسوم .

وهناك أيضا أسرار عجز " فيليب " عن فك رموزها ، فلماذا ذهبت هذه الفتاة إلى " سيبيريا " ؟ ومن ذا الذى قاد مركبها إلى شاطىء "ألاسكا" القفر الأجرد ؟ ومن يكون أعداؤها المجهولون الذين أنقذها "برام " منهم ؟

والتفت " فيليب " إلى الفتاة متسائلا ، فرأى فى يدها صورة قد أطبقت عليها بأصبعها ، فأخذها منها برفق ، وشاهد فيها صورتها وهى واقفة إلى جوار رجل ، فتطلع " فيليب " إلى الفتاة فإذا الدمع يكاد ينهمر من مآقيها .

فأحسّ " فيليب " بأفاعى الغيرة تلسع قلبه ، فمنذ أن ساقه القدر إلى هذه الفتاة ، ونزل حبها من فؤاده فى الصميم ، ربط مصيره بمصيرها ،

وشيّد فى ذلك صروح الأحلام ، وها هو ذا يرى أنها تحب رجلا آخر وأن أحلامه قد انهارت وتداعت .

فذهب إلى النافذة ليخفى عن الفتاة اضطرابه ، ولكنه ما كاد يصل إليها، ويسرّح النظر خارج النافذة ، حتى صاح صيحة ذهول وجزع ، فهُرعت الفتاة فقال لها وهو يشير بإصبعه إلى مكان معيَّن :

– " انظرى ! انظرى ! "

ووقعت أنظارهما على ذلك الذئب الضخم الجثة ، الذى كان منذ قليل يعرق اللحم عن العظم منطرحاً إلى الحضيض ، غارقاً فى بركة من الدماء ، وقد صرعه سهم اخترق جسمه وأرداه قتيلا .

وتبين " فيليب " السهم فعرف من صنفه وشكله وحدّه الرفيع ، أنه السهم الذى تستعمله قبيلة " الكوجملوك " الضاربة فى أرض الشمال ، وهى قبيلة يمتاز أهلها بالإجرام كما يمتازون بسواد البشَرة .

ثم صاح " فيليب " فجأة وهو يقول :

– " ابتعدى يا " إيفا " ابتعدى " .

وأمسك بذراعها وأبعدها من النافذة .

دهشت الفتاة للحركة المفاجئة التى قام بها " فيليب " ، فراح يعتذر لها عنها ويقول :

– " أعتقد أن هؤلاء الأبالسة يراقبون النافذة " .

فلم تفهم ما قال ، ولكنها كانت لا تقلّ عنه ذعراً ، بعد أن

رأت جثة الذئب والسهم المشكوك فيها .

وتناولت ورقة من الأوراق التى كان " فيليب " قد وضعها على المِنْضدة، وقدّمتها إلى " فيليب " ، فإذا رسومها تمثل معركة من المعارك ، فوضح الأمر فى ذهن " فيليب " وقال مضطرباً :

– " أنت إذن ضالّتهم المنشودة ، فإن كانوا قد انحدروا من أرضهم فى أقصى الشمال ، وقلما يفعلون ذلك ، فبَحْثاً عنك ، فهدّئى من روعك وكونى شجاعة " .

وكان " فيليب " فى أثناء حديثه ، لا ينفكّ يراقب النافذة ، ويتوقع أن يرى سهماً من سهام أولئك الأبالسة ، قد اخترق الزجاج وحطمه ، ونفذ إلى الكوخ ، ثم عاد " فيليب " يحدّث الفتاة ويقول :

– " إنك لا تفهمين حديثى ، ولعله من الخير لك ألا تفهميه ، فنحن فى أشد المآزق حَرَجاً ، فقبائل " الأسكيمو " منها الطيب ومنها الشرّير، وهذه القبيلة التى تستخدم مثل هذا السهم ، أكثر الأشرار عنفاً ، وغِلَظ كَبِد وسفكاً للدماء ، ولاشك أن جماعة منها قد نزلت من مشارفها تطاردك وتطارد " برام " ، وأغلب ظنى أن " برام " لن يعود من الصيد ، وربما كان الآن صريع سهم من سهام هؤلاء القَتَلة ".

وعلا عُواء الذئاب ، فهمَّت الفتاة أن تخِفّ إلى النافذة ، فاستوقفها " فيليب " متوسلاً ، ورجا منها ألاّ تبرح مكانها ، ومشى هو وحده إلى النافذة يستطلع سبب العواء ، فرأى الذئاب ثائرة هائجة تحاول أن

تقفز من السور ، ورأى ذئباً ثانياً منها قد تمدَّد على الثلج جثة هامدة، فقال فى نفسه : لا شك أن هؤلاء الأشرار قد أخذوا " برام " على غِرّة وقتلوه ، وجاءوا يخطفون الفتاة ، ظناً منهم أنها وحدهم فى الكوخ ، ولما كانوا يخشون ذئاب الرجل المجنون ، فقد صمموا أن يقتلوها واحداً واحداً بسهم وراء سهم .

وبينما كان " فيليب " تساوره مثل هذه الأفكار ، لمح رأساً قد برز من أحد جوانب السور ، وذراعاً قد امتدت ، وسهماً قد انطلق منها انطلاق البرق واستقرّ فى ذئب من الذئاب ، ثم اختفى ذلك الرأس وتلك الذراع فى أقل من لمح البصر .

وكانت " إيفا " برغم تحذير " فيليب " قد اقتربت من النافذة ، وشهدت ما حدث ، فأمسكت بذراع " فيليب " والخوف يقيمها ويقعدها ثم تركته وطارت إلى حجرتها ، ورجعت منها بعد لحظات وفى يدها شىء قدمته إلى " فيليب " .

وكان ذلك الشىء مسدساً صغيراً جداً ، أشبه بلعب الأطفال ، فأخذ " فيليب " يقلبه بين يديه ، فرآه محشواً بالرصاص ، ولكن الرصاصة منه قد تعجز عن قتل حجلة على بعد خطوات قليلة .

ففرح " فيليب " بذلك المسدس المنمنم ، فحَسْبُه أن يطلق منه بعض الرصاص ، وأن يظهر نفسه للمهماجين ، لكى يعرفوا أن الفتاة ليست وحدها وأنها فى حراسة رجل مسلح .

وكان رجل " الأسكيمو " فى تلك الأثناء قد صرع ذئباً ثالثاً ، وكانت الذئاب السبعة الباقية على أشد حال من الهياج والضراوة .

فذهب " فيليب " إلى باب الكوخ وفتحه قليلاً ليرقب منه مجرى الأحداث ، فتبعته " إيفا " ثم نبّهته بعد ثوان إلى أمر من الأمور ، فرأى رأساً أسود يبرز من فوق السور ، فطار " فيليب " إليه بسرعة البرق الخاطف ، وقبل أن تمتد ذراع الرجل الأسود لرمى السهم ، صرخ "فيليب" فيه صرخة مرعبة ، وأطلق رصاصة من مسدسه الصغير ، وقفز عائدا إلى الكوخ وأغلق الباب وراءه .

واختفى الرجل الأسود على الأثر ، وازداد هياج الذئاب ولكن "فيليب" قد عاد إلى قواعده سالماً .

واستقبلته " إيفا " جازعة خائفة ، فأثّر فيه مظهرها ، وعدّ خوفها عليه علامة من علامات الحب ، فابتسم راضياً على ما يحيط بهما من خطر داهم محقق ، غير أنه تذكر فجأة الصورة التى جمع الفتاة إلى رجل آخر ، فبحث عنها بين الأوراق حتى وجدها وأراها للفتاة مستفهماً .

فتناولت الفتاة الصورة ، ووضعت إصبعها على رسم الرجل فيها ، وهى تنظر إليه نظرات الحب والحنان وقالت :

– " " مين فادر " . . . " مين فادر " . "

فخيّل إلى " فيليب " أن الفتاة تتكلم بالإنجليزية فصاح فيها :

– " " يور فازر " ؟ "

أى " أبوك " فهزّت الفتاة رأسها هزة الإيجاب ، فتنفس " فيليب " الصعَداء وقال :

– " الحمد للّه ! "

وشعر عندئذ أنه يستطيع أن يقاتل جيشاً بأسره .

* * *

وطغى الفرح على فؤاد " فيليب " ، وازدرى كل خطر يحيق به وبالفتاة ، ثم ذكر أن المسدس الصغير لن ينفعه فى المعركة ، فراح يبحث عن شى آخر يتخذه سلاحاً ، فرأى عوداً طويلاً ضخماً من عيدان الشجر ، معلقاً على جدار من جدران الكوخ ، فانتزعه وكان أحد طرفيه يلائم فى حجمه قبضة كفه ، فأمسكه وأخذ به فى فضاء الكوخ مستعداً للقتال .

فتبسَّمت " إيفا " إذ رأته على هذا الحال ، وتبسَّم هو أيضاً وكأنهما بتلك الابتسامة المشتركة ، يتعاهدان على الحياة، ويتحدّيان الموت وهو منهما على قاب قوسين أو أدنى .

ثم تركته الفتاة واختلت فى حجرتها زهاء نصف ساعة ، أما هو فكان ينظر من النافذة إلى ساحة الكوخ ، فرأى الذئاب قد عادت تتفرق فى أنحائها هادئة ساكنة ، فاستنتج من ذلك أن العدو الخفىّ قد رحل عنها وانصرف .

وهكذا انقلبت نظرة " فيليب " إلى هذه الذئاب ، فبعد أن كان

يريد التخلص منها ، أصبح يرى فيها الحارس اليقظ الذى سوف ينبهه إلى الخطر إذا ما عاد رجال " الأسكيمو " إلى الظهور .

وفكر " فيليب " فى أمر هذا الصنف من " الأسكيمو " وفى هجمتهم وتراجعهم ، فجزم أنهم كانوا ولاشك قلة ضئيلة ، لاتزيد على ثلاثة رجال أو أربعة جاءوا مستطلعين ، فلما أيقنوا أن الفتاة تحميها الذئاب من ناحية، ويحرسها رجل مسلح من ناحية أخرى ، نكصوا على أعقابهم ، فإن كانوا قد تخلصوا من " برام " فسوف يعودون أكثر عدداً ، وبدا له أن الهرب هو خير وسائل النجاة ، ولكن الذئاب السبعة تقف سداً منيعاً بين الكوخ والحرية .

وبدأ الجو يكفهرّ فى تلك الساعة ، ونُذُر العاصفة تلوح فى الأفق مع انتشار الظلام ، وامتدت رهبة السكون إلى قلب " فيليب " فاستغرق فى التفكير والتدبر ، ولم ينتشله من وهدة التأمل إلا خروج الفتاة " إيفا " من حجرتها واقترابها منه ، فوقفا جنباً إلى جنب يرهفان السمع فى حواشى الليل البهيم .

وكانت الفتاة كلما هبّ صفير الرياح وعواء الذئاب فمزّق السكون ، خُيِّل إليها أن " الأسكيمو " قد عاودوا هجومهم ، فيمتلىء قلبها رعباً وتشدّ على يد " فيليب " ضارعة إليه أن يحميها ، فيطيب خاطرها ويجتهد أن يبدّد من فؤادها الوساوس والمخاوف .

على أنه ما كان ليجهل أنهما معرّضان لأشد الأخطار ، سواء

من ناحية " برام " وذئابه ، أم على الأخص من ناحية ذلك الصنف من " الأسكيمو " القصار القامة ، السود الوجوه ، فقد كان يعلم من جرائمهم الشيء الكثير ، وآخرها ما كانوا ارتكبوه منذ عدة أشهر من جريمة شنيعة هزت أرجاء البلاد ، وذهب ضحيتها اثنا عشر رجلاً من البيض ، جاءوا يستكشفون المجاهل فى أصقاع الشمال . وعلى أثر ذلك بعثت الحكومة ثلاث " دوريات " من الشرطة إلى مناطق الشمال ، تجدّ فى البحث عن القتَلَة ، ومن بينها " دورية " بقيادة الشرطى " أولاف أندرسون " السويدى الأصل .

وذكر " فيليب " أنه عندما غادر حصن " شرشل " ، كان قد أشيع أن " أندرسون " ورجاله الخمسة قد قتلوا ، فلا عجب أن يكون والد " إيفا " ومن معه ، عندما نزلوا من المركب ، وتوغلوا فى السهل الأبيض ، قد هاجمهم هؤلاء الأبالسة من " الأسكيمو " واستولوا على ما كان معهم من مال ومتاع ، ولكن الذى كان يحير " فيليب " هو وصول هؤلاء الوحوش إلى كوخ " برام " الواقع فى جنوب ديارهم ، على حين كان يعلم أنهم لا يغامرون فى النزول إلى الجنوب والابتعاد عن قواعدهم .

وبرغم الهواجس ، كان لا يفتأ يشجّع الفتاة بالكلام طوراً ، وبالإشارة طوراً آخر ، على حين كان الظلام الحالك يحول دون أن ترى الفتاة إشارته وأن تفهمها .

٥

كانت الزوابع بين حين وحين ، يشتد عَصْفها فيُسْمع لها صفير حاد تنخلع له قلوب الشجعان ، وكانت " إيفا " و " فيليب " يتوهمان أن ذلك الصفير صراخ الأعداء الهاجمين على الكوخ ، ويتأهبان لملاقاة زبانية الجحيم . ثم تعود الطمأنينة إلى قلبيهما ، حينما يوقنان أنه صراخ الطبيعة الثائرة يعرب عنه صعف الرياح .

وامتدّ الظلام طبقة فوق طبقة ، حتى تعذرت معه الرؤية ، فذهبت "إيفا " إلى حجرة الزاد والأمتعة فى الكوخ ، وعادت منها ببعض الشموع كان " برام " قد صنعها من دهن الدِّببَة ، ووضعتها على المنْضدة ، فأشعلها " فيليب " وتألق النور فى أرجاء الكوخ ، وأعقبه على الفَور عواء الذئاب ، فارتعدت فرائص " إيفا " ظنًّا منها أن " الأسكيمو " قد عادوا

إلى الهجوم ، وازدادت ارتعاداً عندما خالط ذلك العواء أزيز العواصف ، فهدّأ " فيليب " من روعها وقال :

– " لا تخشَىْ بأساً يا عزيزتى ، فالعواصف كفيلة بأن تبعد منا هؤلاء الوحوش من البشر " .

وأراد أن يشرح لها كيف تهبّ تلك العواصف ، ومن أين تأتى ؟ فأخرج من جيبه خريطة القارات الخمس ، ونشرها فوق جانب من المنضدة وقال :

– " انظرى إلى هذا الجزء . . . إنه بلاد " كندا " وها هى ذى البقعة التى نحن فيها ، وفى هذه النقطة يقع الكوخ الذى نأوى إليه " .

ورسم بقلمه على الخريطة نقطة سوداء ، ثم استأنف حديثه وقال وهو يشير بقلمه إلى ناحية الشمال :

– " ها هنا السهل الأبيض الواسع . . . انظرى إلى أعلاه تجدى بحر الشمال المتجمّد ، وانظرى إلى ناحية الشرق منه تَرَىْ " خليج هدسن " فمن هنا تهبّ الرياح وتصل إلى السهل الأبيض عاصفة ثائرة " .

ولم يكن يبدو على ملامح " إيفا " أنها تتابع ذلك الشرح ، وأنها يهمها أن تعرف من أين تهبّ الرياح ، فكل ما كان يشغل بالها بعد ما عرفت موضع الكوخ من الخريطة ، أن ترسم الطريق التى سلكتها فى الوصول إليه ، فقطعت فجأة على " فيليب " خطّ الكلام وصاحت :

– " هنا . هنا " .

ووضعت إصبعها على الخط الأزرق المعروف بنهر " منجم النحاس " وهو النهر الذى يخرج من " بحيرة العبد " ويتجه إلى الشمال وقالت : – " كوبر ماين " . . . " كوبر ماين " أى " منجم النحاس " ، وفهم " فيليب " من كلامها وإشارتها أن القافلة كانت تجتاز النهر ، فهاجمتها جماعة من قبائل " الأسكيمو " السود المعروفة " بالكوجملوك " ، ولكنها هزمت ولاذت بالفرار ، ثم عادت إلى الهجوم ، وهنا برز لها " برام جونسون " فأنقذ الفتاة وحملها معه إلى الجَنوب ، وفهم " فيليب " كذلك من العلامة التى وضعتها " إيفا " على الخريطة وهى تقول : "فازر" " فازر " أى والدى والدى ، أنها تشير إلى المكان الذى بقى فيه أبوها ، وأنه يجب أن يذهبا إليه .

ولم يشأ " فيليب " أن يقول لها إن الذهاب إلى الشمال ضَرْبٌ من الجنون ، وإن أباها لاشك فى عِداد الأموات ، فإن كان " أندرسون " ورجاله الخمسة وكلهم بطل صنديد ، قد لقَوا حَتْفَهم فى صراعهم مع " الأسكيمو " السود ، فكيف يستطيع أبوها أن يقاوم تلك الطغمة من القَتَلة ويبقى حياً حتى اليوم ؟ وإن كان لابد من الفرار من ذلك الكوخ قبل عودة " الأسكيمو " السود ، وجب أن يتجها إلى الجنوب ، وأن يصلا إلى كوخ " بطرس راسين " وأن يحتميا به ريثما ينجدهم رجال الأمن ، أما التوغل إلى الشمال بلا سلاح ولا كلاب ، ولا مركبة زحّافة ، فمعناه الانتحار ، فسكت على مَضَض حتى لا يثبط عزيمتها ، ولا ترميه بالجُبْن

مع أنه يحلو له الموت فى سبيلها بعدما ملأ حبها شِغاف قلبه ، وثق من أكثر من دليل أنها تبادله الحب والغرام .

وطلب إليها بعد قليل ، أن تأوى إلى مخْدَعها وتنام التماساً للراحة ففعلت ، وبعد نحو ساعة ، أرهف سمعه إلى حجرتها ، فوثق بأنها نائمة ، فلبس معطفه ، وثبّت قبعته على رأسه وتناول الهِراوة التى صنعها من عود االشجرة ، ومضى ينفّذ الفكرة الجريئة التى خطرت بباله ، فذهب إلى باب الكوخ وفتحه برفق وحذر ، ثم خرج وأغلقه وراءه ، وبقى هنيهة جامداً لا يتحرك ، وكان غرضه أن يعلم هل يستطيع فى وسط العاصفة أن يجازف بالابتعاد من الكوخ دون أن تلتفت إليه الذئاب .

فخطا أول خُطْوة ، ثم أتبعها بخُطُوات أخَر ، ويده مرفوعة بالهِراوة يهمّ بأن يهوى بها على رأس أول ذئب يعترض سبيله ، فاستطاع فى جنح الظلام ، ووسط صفير الرياح ، أن يبلغ السور وقلبه تكاد تسمع دقاته ، وتحسس السور إلى اليمين ، فوصل إلى الباب الخارجى ففتحه ، وأسنده بقطعة خشب حملها معه ليظل مفتوحاً ، ثم عاد إلى الكوخ فى خفة الهواء ، يقوده إليه ضوء شمعة أبقاها مشتعلة فيه فعكست الضوء على النافذة .

وانتهت مغامرته على خير ما يرام ، فدخل الكوخ وأوصد الباب وراءه ، فإذا به يرى " إيفا " واقفة تنتظره ، ويداها مشتبكتان على صدرها تترجمان قلقها الشديد ، فنظرت إليه نظرة السائل المستفهم ، فأشار

إلى السور وقال بلهجة الظافر المنتصر :

– " إن الذئاب لن تكون هنا صباح الغد ، فسوف تهرُب من الباب الخارجى الذى فتحته ، فطريق الفِرار أصبح أمامنا مفتوحاً ! "

فلمعت عين " إيفا " دلالةً على أنها أدركت مرماه ، واغتبط "فيليب" بذلك ، ورجا منها أن تعود إلى مخْدَعها وتستسلم إلى الرقاد ، وبقى هو ساهراً فترةً من الوقت ، ثم قرّر أن ينام ، فملأ الموقد بالحطب حتى غص به فوق بقايا النار الملتهبة ، وأطفأ الشمعة الأخيرة المشتعلة ، واستلقى إلى السرير دون أن يخلع ثيابه .

ومكث زهاء ساعة لا يجد النوم إلى جفونه سبيله إلى أن تعب فى التفكير فنام .

واشتدت الزوابع ، واتخذت الريح من أنبوبة الموقد ملعباً لها ، فأذكت اللهب ، واندلع معها لسان من النار شقَّ كَبِد الظلماء ، هذا و" فيليب " غارق فى سباته ، مستسلم إلى لذيذ الأحلام ، وقد رأى فيها أن " إيفا " قد زُفَّت إليه فعاشا أسعد زوجين على الأرض .

وأخذت " فيليب " وهو نائم نوبة من العطاس ، صحا بعدها فرأى الكوخ مفعماً بالدخان ، وألسنة اللهب تَلْعَق سقف الكوخ ، وقد بدأت بعض ألواحه تتقصف بفعل النار .

فهبّ كالمجنون ، وجرى إلى حجرة " إيفا " وكانت هى أيضاً قد استيقظت ، وقبل أن يلفظ كل منهما كلمة واحدة ، عَمَد " فيليب "

إلى جلد من جلود الدّببة المفروشة فى الأرض ، فغطى الفتاة به ، وحملها بين ذراعيه ، وخرج بها من الكوخ المحترق ، واجتاز الباب الخارجى وهو يعدو بِحِمْله إلى الغابة .

* * *

اختار " فيليب " شجرة ضخمة من أشجار الصنوبر ، فأجلس الفتاة عندها ، وخطر له أن يعود إلى الكوخ ، وينشل من النار ما يستطيع من زاد ومتَاع دون أن يحسب للذئاب حساباً ، فإن لم تكن قد هربت إلى أقاصى السهل ، فإنها لن تهاجمه ، فالنار أخشى ما تخشاه ، ومهما بلغ خطر المجازفة ، فالواجب يتقاضاه أن يقوم بها ، فهو الذى وضع الفتاة فى هذا المأزق ، وهو وحده سبب الحريق ، فلو لم يبالغ فى ملء الموقد بالحطب حتى أعلاه ، لما حدثت هذه النكبة .

واستأذن الفتاة فى الغياب قليلاً ، ورجع إلى الكوخ فلقيه قاعاً صفصفاً ، فقد أكلته النيران ، وأكلت معه كل ما كان فيه ، فنكص على أعقابه عائداً إلى الغابة ، والأسف يمزّق قلبه ، وخوفه على الفتاة من البرد القارس الذى سوف تزداد وطأته وتصل إلى عشرين درجة تحت الصفر يَشْغَل باله .

على أن الرجل القوى العزيمة ، الثاقب الفكر ، لا يستسلم إلى اليأس، فما زال " فيليب " يقدح زِناد فكره ، حتى هداه خاطره إلى رأى ملأ نفسه أملاً ، فقد ذكر أنه مرّ فى صحبة " برام " على كوخٍ خالٍ

مهجور ، فعزم على أن يذهب بالفتاة إليه ، وقدّر أنه لا يبعد أكثر من ثمانية أميال أو عشرة ، ولن يخونه التوفيق فى العثور عليه .

وعندما وصل إلى حيث كانت الفتاة ، سرَّه أن يراها ترحب به أجمل ترحيب ، وتناديه باسمه ، ويعرب صوتها عن فرحها بلقائه ، فوضع إصبعه على فمه راجياً منها بذلك ألاّ تتكلم ، وأن يمتنعا عن الحركة حتى لا يثيرا انتباه " الأسكيمو " ، فإنه لا يخالهم بعيدين منهما .

وانحنى " فيليب " على الفتاة ، وأحكم تغطيتها بجلد الدبّ ، وحملها بين ذراعيه وسار بها إلى غابته .

وكانت الريح قد خفّ هبوبها ، والسحب قد تراكم بعضها فوق بعض ، وتمزّقت فى سيل من الثلج المنهمر رأى فيه " فيليب " فألاً حسناً ، فسوف يغطى آثار الخطا ، فلا يهتدى " الأسكيمو " إلى الطريق التى سلكها .

ومشى " فيليب " بحِمْله إلى الشرق زهاء ميل واحد ، ثم وقف يستريح، وكرّر وقفاته فى أثناء السير ثلاث مرات ، حتى وصل إلى غابة كثيفة تشابكت منها الأوراق والغصون ، فمنعت الثلج من بلوغ الأرض ، فقطع بعض الأغصان ، وبنى منها عشًّا أجلس فيه " إيفا " وجلس هو على مَقْربة منها ينتظران طلوع النهار .

وكان الفجر قد بدأ يلوح فى الأفق ، فاستعرض " فيليب " فى خاطره حوادث الليلة الماضية ، واستقر فى ذهنه أن " الأسكيمو " لا شك

قد عاودوا هجومهم على الكوخ ، وأنهم بعد أن رأوه قد زال واندثر وأكلته النار ، عرفوا أن فريستهم قد هربت هى وحارسها ، فأغلب الظن أنهم يجدّون الآن فى البحث عنه وعن الفتاة ، فمهما حال الثلج دون اقتفاء أثرهما ، فلن يستمرّوا طويلاً حتى يعثروا عليهما ، هذا ما يحتم عليه أن يكون فى يَقظة دائمة . . .

ترك " فيليب " رفيقته الحسناء بعد أن أمِن عليها قَسْوة البرد ، ومضى إلى طَرَف الغابة مستطلعاً ، فعثر فى أثناء سيره بعُود صُلْب من عيدان الشجر ، فالتقطه مسروراً ، واتخذ منه سلاحاً نافعاً ، وظلّ يمشى حتى وصل إلى مكان تسهل منه المراقبة ، فلبث فيه يراقب ويستطلع .

وطال وقوفه دون أن يستكشف أمراً ذا بال ، ففكر فى " إيفا " وفى القلق الذى يكون قد استحوذ عليها من جرّاء غيابه ، فهَمّ بالرجوع إليها ، غير أن إحساساً خفياً كان يُهيب به أن يبقى حيث هو ، ويقول له إن حَدثاً من الأحداث يقترب منه .

واستمرّ فى مرقبه يسرّح النظر ويرهف السمع ، فأحسّ فجأة بحركة من الحركات ، ولم يَدْرِ من أية جهة تنبعث ، فأدار رأسه فى بطء وحذر، فرأى على بعد اثنتى عشرة خطوة منه ، شبحاً ملثماً تقدح عيناه بالشرر .

وفى أقلّ من تردّد الطرف ، رفع الشبح الملثّم ذراعه ، وانطلق منها سهم يلمع لمعان البرق ، ويمزّق صفيره السكون الرهيب .

فلم يفقد " فيليب " رشده إزاء هذا الخطر الداهم ، فانبطح أرضاً وطاش السهم ، وظن الرجل الملثّم أنه أصاب منه مقتلاً ، فصرخ صرخة الظفر المعروفة عند " الأسطيمو " السود ، ولكن " فيليب " وثب واقفاً وثْبة النَّمِر ، ولوح هِراوته أوعود الشجرة فى الهواء ، ثم أهوى بها على الرجل المقنَّع مَثْنَى وثُلاثَ ، فسقط إلى الأرض قتيلاً لا حراك به .

ولم يكد " فيليب " يستعيد توازنه بعد تلك الضربات ، حتى برز له شَبَحان آخران ، هجما عليه وهما يصيحان صياح الوحوش ، فأذهلته المباغتة ، ولم يجد متَّسعاً من المسافة لرفع هِراوته والضرب بها ، فهجم على أقرب الشبحَيْن من " الأسكيمو " السود ، وانتزع منه السهم الذى كان يطلقه ، وكال له بقبضة يده ضربة شديدة على فمه ، أتبعها بأخرى خرّ بعدها فاقد الوعى .

وشعر " فيليب " فى هذه اللحظة بذراعين تطوّقان عنقه ، وتشدّان عليه شداً عنيفاً ، حتى كادت تزهق روحه ، وهو لا يستطيع فَكاكاً من تلك الكماشة ، وكانت تلك طريقة من طرائق " الأسكيمو " فى المعارك والقتال، إذ يهجم الواحد منهم على الضحية من الخلف ، فيشدّ على عنقه حتى يمنعه من الحركة ، فى حين يتقدم منه زميل له ويغمد سكينه أو سهمه فى قلبه .

وأفاق " الأسكيمو " الصريع من غيبوبته ، وأهاب به زميله أن يحضر فيجهز بسكينه على الأسير .

وتذكر " فيليب " وهو على هذه الحال ، أن فى جيب حِزامه المسدس الصغير الذى كانت قد أعطته " إيفا " إياه ، فأخرجه بسرعة البرق ، ولوى ذراعه إلى أعلى برغم الضغط عليها ، حتى كاد يفك مفْصَلها ، وأطلق الرصاص فى وجه آسره ، فأحرق البارود القناع ، ومزّق الوجه ، وحطم الرأس ، فسقط الآدمى الوحش وقد فارقته الحياة .

وكان زميله يزحف على يديه وركبتيه ، دامى الوجه مثخناً بالجراح ، فتلقاه " فيليب " وقد أصبح حراً طليقاً بضربة من هِراوته التى التقطها من الأرض ، فكانت القاضية عليه ، وخرج " فيليب " من تلك المعركة ظافراً منتصراً ، وأمامه ثلاث جثث ممدة على الثلج .

وفيما هو يتأمل ضحاياه ، محاذراً أن يكون عُرْضة لهجوم آخر ، التفت وراءه فوجد على بعد خطوات منه ، شخصاً ينظر إليه ويقول له :

– " " فيليب " . . . " فيليب " ! "

وكان ذلك الشخص " إيفا " الشقراء ، فإنها بعد طول انتظاره ، حدّثتها نفسها بأنه فى خطر ، فسارعت إليه ، فاستقبلها بدموع الفرح ، وزاد إيمانه بأنها تضمر له من الحب ما يضمر .

وعكّر عليهما صفو هذا اللقاء ، صرخات متوحشة دوّت من بعد، وكانت " نداء الدم " ، أطلقته القبيلة ليسمعه الرجال الثلاثة الذين هاجموا " فيليب " . وكان النداء يتجاوب شرقاً غرباً ، فعانق " فيليب " حبيبته " إيفا " وعلت نفسه إلى الله بصلاة من الصلوات ، فإنما كان يعلم

أن المعركة لما تحتدم وأنها بعد فى طور البداية .

* * *

شاء " فيليب " أن يجمع من معركته الظافرة الغنائم والأسلاب ، فطلب من " إيفا " أن تنتظره قليلا ، وعاد إلى حيث ارتمت الجثث الثلاث، فجرّد الجثة الأولى من القناع المصنوع من الجلد ، والذى يغطى الرأس والوجه ، ثم نزع عنها ثوبها المبطّن بالفِراء ، وخلع من قدميها المداس ، ورجع بغنائمه إلى الفتاة .

وبينما شرعت " إيفا " تلبس القناع وثوب الفِراء وتنتعل المَداس، نزولاً عن رغبة " فيليب " كرّ هو راجعاً إلى الجثة الثانية ، ولبس قناعها وثوبها ، ثم أخذ يلتقط الأسلحة ، فجمع منها سكينين وستة سهام قاتلة ، وكانت إحدى السكينين ، لاتزال فى قبضة الجثة التى كان صاحبها قد زحف ليضربه بها ، فى اللحظة التى فعل مسدس " إيفا " الصغير فعله .

ثم انتزع من كل جثة كيساً كان معلَّقاً بحزامها ، وأفرغ الأكياس الثلاثة ، فعثر فيها على بعض الحبال المفتولة من الجلد ، وعلى الأدوات التى يشعل بها " الأسكيمو " النار ، فاغتبط كل الاغتباط بهذه الأشياء الثمينة، ولم يجد فى تلك الأكياس شيئاً من الزاد مما يدل على أن معسكر " الأسكيمو " السود غير بعيد .

وما كاد ينهض عائداً بأسلابه ، حتى لاحت له " إيفا " قادمة

إليه ، فلم يتمالك عن الابتسام وإن يكن الموقف لا يدعو إلى المرح والمُزاج، فقد رآها فى ثوب " الأسكيمو " وقناعه ، ولو لم تدعه باسمه بنبرات صوتها العذب لما عرفها .

ورجع " فيليب " إلى نفسه ، وذكر حرج الموقف ، وبدا له أن الوقت أثمن من أن يضيّع منه دقيقة واحدة ، فأنهى إلى " إيفا " أن جماعات أخرى من العدو تجدّ ولاشك فى إثرهما ، وأن صواب الرأى الرحيل من ذلك المكان ومتابعة السير .

فربط بحزامه أحد الأكياس الثلاثة ، والتقط هِراوته ، وأخذ معها بعد تردد قليل سهماً من السهام ، وهولايدرى بماذا ينفعه وكيف يستعمله؟ وحذت " إيفا " حذوه ، فالتقطت سهماً آخر ، واستعدت للقتال إلى جانب حارسها فى المعركة المقبلة ، ثم سار الاثنان جنباً إلى جنب متوغلين فى الغابة .

وحاول " فيليب " أن يستكشف الطريق الذى كان سار فيه هو و" برام " ، وأن يتذكر المواضع التى سبق أن مرّا بها ، وكان يقف من حين إلى حين ويلتفت إلى الخلف ليأمن خلوّ الطريق من عدو مطارِد .

وما زال " فيليب " و" إيفا " يغذّان فى السير ، حتى ظهر لهما فجأة آثار أقدام حديثة العهد ، مرسومة على الثلج فى خط طويل يؤلّف مع خطهما زاوية مستقيمة ، فانحنى " فيليب " يفحص تلك الآثار .

فانطلقت منه صيحة دهش ، فقد كانت آثار مداس " برام جونسون " لأن " الأسكيمو" لا يلبسون مثل ذلك المداس ، فلو كان الأثر أثر أحد من " الأسكيمو " فلابد أنه يلبس مداس رجل أبيض ، ثم لاحظ أيضاً أن المسافة بين خطوة وخطوة ، واسعة جداً بحيث يستحيل أن تكون خطوات رجل من " الأسكيمو " ، فجزم أن السائر الذى ترك هذه الآثار لابد أن يكون رجلاً أبيض أو أن يكون " برام " نفسه .

وكانت " إيفا " قد انحنت هى أيضاً تفحص الأثر ، فنهضت وهى تصيح فى شىء من التردد :

– " " برام " . . . " برام " . . . "

ثم هزّت رأسها تستدرك ما قالت ، والتقطت من الأرض عوداً صغيراً ووضعته فى عرض بصمة من بصمات تلك الخطا ، ففهم " فيليب " ماذا تعنى ، وتذكر أن مداس " برام " كان البوز منه مقطوعاً قطعاً مستقيماً ، ولم يكن مستديرالقطع ، شأن المداس العادى الذى يلبسه بقية الناس ، فوثق إذن من استدارة البوز فى تلك الآثار ، أن الذى مرّ بذلك المكان رجل غير " برام " .

ولعبت الحيرة بقلب " فيليب " ، وسرح به الفكر إلى الرجل الأبيض الذى سار فى ذلك الطريق أصديق هو أم عدو ؟ أشرطى من شرطة الغرب هو؟ أما لو كان ذلك ، لتكونن السماء قد أرسلته فى الوقت المناسب لينتشله هو ورفيقته من وهدة الأخطار!

وحار أيضاً فى الطريق الذى يسلكه ، أيقتفى أثر الرجل أم يهرُب منه ؟

واستمرّ تتضارب فى ذهنه الآراء والأفكار ، وهو لا يدرى إلى أيها يميل ، حتى طرق مسْمَعه ومسْمع الفتاة ، دوىّ هائل غريب ، أضخم من صوت الطبول عندما تُقْرع ، كأنه نداء من نداءات الحرب ، يتجاوب صداه فى جوانب الأفق الأربعة ، وهو ينقل إلى الأسماع هذه الكلمة :

– " هوم . . . هوم . . . هو أو أو م م م ! "

ولم يغيب عن " فيليب " ولاعن الفتاة ، أن " الأسكيمو " قد عثروا على جثث قتلاهم ، وأنهم يتنادون للثأر ، فقطع هذا الحَدث على " فيليب " سبيل الحيرة والتردد ، وقرر اللحاق بالرجل الأبيض، فإن كان صديقاً ساعده على مجابهة الأخطار ، والتغلب معه عليها ، وإنقاذ الفتاة من براثن وحوش يُنْسَبون إلى البشر ، وإن كان عدواً فقد تكون أهون الشرّين . . .

٦

رمى " فيليب " السهم والهِراوة ، ولم يحتفظ إلا بالسكين التى انتزعها من إحدى جثث " الأسكيمو " ، وحمل " إيفا " بين ذراعيه وهو يقول :

– " لابدّ من التخفف فالآن يجب الركض وإلا . . . "

واجتاز نحو مائة متر ، ووقف وأنزل " إيفا " من بين ذراعيه ، وجعلها تقف على قدميها ، وراح يشرح لها أن الموت أو الحياة متعلقان بالسرعة التى يسيران بها .

وكان الثلج قد انقطع عن الانهمار ، فأخذت " إيفا " تجرى معه جنبا إلى جنب فى عزيمة قوية وشجاعة فائقة .

وعلى كُرْهٍ منها ، توقفت بعد قليل وهى تَلْهَث من التعب ، فحملها " فيليب " ثانيةً بين ذراعيه ، وجرى بها فى أقصى ما يستطيع من السرعة .

وبعد نحو أربعمائة متر ، أشارت " إيفا " إلى " فيليب " أنها قد استراحت ، فوقفت على قدميها ، واستأنفت الجرى معه ، ولبث الهاربان يركضان ، حتى قطعا ما يقرب من ميل ، ولشَدَّ ما دهش " فيليب " إذ رأى أن آثار الرجل قد اتجهت من الشرق إلى الشمال ، فجلس هو و " إيفا " يستريحان قليلاً ، و أخذ يفحص الجليد فى تلك الناحية ، فلمح على الأرض عدة نقط يضرب لونها إلى اللون البنىّ ، فقال وهو يضحك :

– " هنا أخرج الرجل المجهول علبة تبْغه " .

وعاد " فيليب " و " إيفا " إلى الركض ، بعد أن استراحا ، وعاد " فيليب " فى أثناء ذلك ، يحمل الفتاة بين ذراعيه كلما رآها قد خارت قواها وناء بها التعب .

وقدر " فيليب " أنهما قد قطعا نحو خمسة أميال منذ أن تركا الكوخ المحترق ، ولاح له تَلٌّ من التلال كان عليهما أن يصعّدا فيه ، فسرّ " فيليب " إذ رآه ، وتذكر أنه كان قد اجتازه فى صحبة " برام " بعد أن مرّا بالكوخ المهجور .

ولاحظ " فيليب " كذلك أن آثار الرجل المجهول ، تدل على أنه قد اجتاز ذلك التل فلعله يقصد هو أيضاً الكوخ المنشود .

وشق على الفتاة التصعيد فى ذلك التلّ ، وأبَتْ أن يحملها " فيليب " حتى لا ترهقه وتكون عبئاً عليه ، فلم يَحْفِل بممانعتها ، فأجهشت بالبكاء حين رفعتها ذراعاه ، فقال لها :

– " تشجعى يا آنسة ، فالكوخ أصبح غير بعيد ، وعندى من القوة ما أقدر معه أن أوصلك إليه " .

ومشى بها نحو نصف ساعة ، فلاح له الكوخ ، ورأى الدخان يتصاعد من مدخنته ، فاستدل من ذلك على أن فيه حياً من الأحياء .

وتجاذبه اليأس والأمل ، ففى ذلك الكوخ يجثم الهلاك أو تشرق النجاة، فخلع ملابس " الأسكيمو " وتأهب للقتال ، ونظر إلى " إيفا " فرآها فى صُفْرة الأموات ، فابتسم لها مشجعاً وقال :

– " الحمد لله ! لقد وصلنا قبل أن يدركنا " الأسكيمو " . . . إنى ذاهب للاستطلاع ، فلا تتحركى من مكانك ، وابقى مختبئة تحت هذه الأغصان حتى أعود " .

فتشبّثت به متنهّدة ، ووَدَّت لو حالت دون ذهابه أو ذهبت معه ، ولكنها عرفت أنه لا بُدَّ لها من أن تطيعه ، فتركته يسير إلى غايته ، وودّعته بكلمة واحدة همست بها من أعماق قلبها قائلة :

– " " فيليب " . . . "

* * *

دار " فيليب " حول الكوخ ، ولاحظ أنْ ليس به إلا نافذة واحدة

تغطيها ستارة من الأغصان المتشابكة ، فسار إليها فى حذر وحرص، وتصنَّت من وراء الستارة ، فسمع خطوات رجل يمشى فى أرض الكوخ، فتقدم إلى الباب وهو يتحرّق شوقاً إلى معرفة من يكون هذا المجهول ، وإلى أن يستولى على بندقيته لو كانت معه بندقية ، سواء لديه أعَمَد فى هذا الغرض إلى الحيلة أم إلى العنف ، " فالأسكيمو " يجدّون فى أثره وأثر الفتاة، وهم فى طريقهم إليهما .

وعندما وصل إلى الباب ، وتطلع من شقوقه إلى داخل الكوخ كان أول ما وقع عليه نظره ، حذاء من أحذية " الأسكيمو " ، وجعبة ممتلئة بالسهام، مستندة إلى جدار الكوخ ، فخاب فأله ، واضمحل أمله الباسم ، فالرجل صاحب الخطوات الفسيحة ليس إذن إلا واحداً من " الأسكيمو " بقامة مديدة .

وفيما هو على هذه الحال ، شمّ رائحة القهوة والتبْغ تتصاعد من داخل الكوخ ، فزادته حيرة ، فرجل " الأسكيمو " قد يشرب الشاى ويدخن التبْغ ولكنه لايشرب القهوة أبداً .

وترك " فيليب " شقوق الباب ، وتقدم من المدخل ، وكان شبه مفتوح ، فاستطاع أن يرى من خلال العَتَمة الخفيفة ، موقداً تتأجج فيه النار ، ورجلاً قد جلس إزاءها منحنياً إليها ، ثم رآه قد اعتدل فى جلْسته، ورفع من فوق النار إبريق قهوة .

وبدا " لفيليب " من ظهره العريض ، وقامته المديدة ، أن الرجل

ليس من " الأسكيمو " ، واتَّفق أن استدار الرجل لحظة سريعة ، فرأى " فيليب " أن وجهه وجه رجل أبيض ، ذى لحية كثيفة ، وشعر طويل أشعث يرتمى على كتفيه .

وكان الرجل قد لمح هو أيضاً " فيليب " فذهل وجمد فى مكانه ، فوثب " فيليب " إلى داخل الكوخ شاهراً مسدس " إيفا " الصغير وصاح قائلا :

– " أنا الشرطى " فيليب برانت " ارفع يديك " .

ووقف الرجلان وجهاً لوجه ، أحدهما جامد مذهول من المفاجأة والثانى قلق ينتظر الأحداث ، ويتوقع أن يرفع الرجل يديه مستجيباً لتهديده .

وكان فى يد الرجل إبريق القهوة ، فقذف بمحتواه فى وجه " فيليب " فتلافى " فيليب " السائل الساخن مبتعداً عن مجراه ، وأطلق من المسدس رصاصة أولى ، وقبل أن يضغط على الزناد لطلقة ثانية ، كان الرجل المجهول قد انقضّ عليه انقضاض الصواعق ، ففقد الرجلان توازنهما ، وتدحرجا إلى الأرض فى اشتباك عنيف .

وتمكن " فيليب " من أن يتخلص قليلاً من ثقل جسم غريمه ، فضربه بجُمْع كفه ضربةً شديدةً على وجهه ، ترنح لها الرجل الغريب، فأفلت منه " فيليب " وهبّ واقفاً على قدميه ، وهبّ خصمه كذلك واقفاً ، فكال له " فيليب " ضربة على فكه كفيلة بأن تصرع رجلاً

من أوساط الناس ، ثم أتبعها بأخرى أشدَّ منها ضعضعت خصمه وكاد يهوى إلى الأرض ، ثم ألحقها بثالثة ، ولكنه لم يحسن تسديدها فضاعت فى الهواء وفقد توازنه ، فانقضّ الغريب عليه ، وشدّ على عنقه بقبضة من حديد يريد أن يخنقه ، فحاول أن يتخلص منه ولكن على غير طائل ، وحانت له ضربة قدم ناجعة فى ساق غريمه ، فسقط الاثنان معاً إلى الأرض، ولم يلحظا أن " إيفا " كانت واقفة على مقربة من الباب ، تشاهد والمعركة فى قلق قاتل .

وما إن رأت الغريب قد عاد يضغط على عنق " فيليب " ، حتى تولاّها الجزَع ، فجرت إلى هِراوة كانت مسندة إلى أحد جدران الكوخ ، فتناولتها وأهوت بها على رأس الرجل الغريب ، فسقط فاقد الوعى ، ونجا " فيليب " من كفيه الغليظتين ، فهبّ واقفاً ، وفتح ذراعيه فى ضحك يشبه الهَذَيان ، فارتمت " إيفا " بينهما لاهثة منتحبة .

ثم أخذ " فيليب " يتنفس مِلءَ رئيته أمام جسم غريمه الممدّد على الأرض ، ويجيل الطرف فى أنحاء الكوخ ، فصاح فجأة صيحة الفرح والاستبشار ، حينما رأى فى إحدى الزوايا ، بندقية كان إلى جوارها حزام من الجلد يتدلى مسدس من أحد جوانبه ، فتمنطق على الفور بالحزام ، وكان فيه نحو أربعين رصاصة ، ثلثاها للبندقية والثلث الآخر للمسدس ، وقد كان من آخر طراز محشواً بالرصاص .

وفى غمرة فرحته ، ذهب " فيليب " إلى الباب وفتحه وصاح بصوت جَهْوَرى قوى :

– " تعالوا الآن أيها الأبالسة فما عدت أخشاكم ! هيا اقتربوا فالموت فى انتظار أول هاجم منكم ! "

ودوّى عندئذ صراخ غير بعيد المدى ، مزّق السكون وكان الجواب عن تحدّى " فيليب " .

* * *

وتبع ذلك الزعيق زعيق آخر تفهم منه كلمة :

– " ميتو . . . ميتو . . . "

وهوالنداء الذى يوجهه " الأسكيمو " إلى رفيق من رفقائهم ، ولاشك أنه موجه إلى الرجل الذى فى الكوخ .

وبينما كان " فيليب " يستمع إلى ذلك الصراخ ، وهو يراقب الأرض والشجر ، دخلت " إيفا " الكوخ ورأت الرجل الذى صرعته بضربتها قد بدأ يتحرك ، فنادت " فيليب " فطلب إليها أن تحل محله فى الحراسة والمراقبة ، وبقى هو فى الكوخ ينتظر صحوة الأسير .

وجاء بالحبل الذى كان قد وجده فى كيس أحد قتلاه من " الأسكيمو" فربط به يدى الأسير ورجليه ، وانعكس شعاع من الضوء فى أثناء ذلك على وجه المارد الممدد على الأرض ، وكانت ثيابه قد انفرجت عن صدره فى أثناء المعركة ، فاسترعى انتباه " فيليب " وشْم أحمر دقَّ فى

صدر الأسير على صورة حوت فاتح فكّيْه ، يعالج سنان صنّاة ضخمة كان قد اخترقه ويحاول أن يتخلص منه .

وكان تحت الوشم ، كلمة تكاد تكون ممحوّة الأحرف ، فاستطاع "فيليب " أن يقرأ تلك الكلمة ، فإذا هى " بلاك " وكان يسبقها حرف "ج" فقال " فيليب " وهو ينهض عن الجسم الطريح :

– " " بلاك " . . . " جورج بلاك " ولاشك . . . إنه رجل أبيض من الملاّحين " .

وبدأ الرجل المغمى عليه يستعيد أنفاسه ، ويتمتم ببعض كلمات غير مفهومة ، والتفت " فيليب " إلى الباب فرأى " إيفا " تدعوه إليها ، وتشير إلى شيء من الأشياء خارج الكوخ ، فأقبل إليها ونظر من فتحة الباب ، فرأى على بعد مائة وخمسين متراً أو أقل ، مركبة زحافة تجرها الكلاب ، قادمة إلى الكوخ ، ويسوقها شخص مقنّع بقناع " الأسكيمو"

واستدار " فيليب " فجأة إلى " بلاك " فرآه قد صحا من غيبوبته وأخذ يحدّق بعينين حمراوين مبللتين بالدماء ، وهو يحاول أن يقطع الحبل المربوط به .

ولما نهض قليلاً من ضجعته ، وأمعنت " إيفا " فى النظر إليه ، صاحة صيحة اضطراب ، فتحولت نظراته إليها ثم إلى الباب ، فبدت على وجهه علامات الغبطة والاطمئنان حين سمع صراخ " الأسكيمو " يقترب من الكوخ .

ثم استنجد بعضلاته القوية ، فقطع الحبل الملفوف على يديه ، ولكن خفّ " فيليب " إليه فى سرعة البرق ، وشهر فى وجهه المسدس الكبير وقال :

– " الفظ كلمة واحدة . . . أو قم بأية جَلَبة يكن مصيرك الموت يا بلاك " . إنى فى حاجة إلى المركبة والكلاب ، فاختر بينها وبين أن أحطم رأسك برصاص هذا المسدس ! "

وتركه " فيليب " فى حراسة " إيفا " وكانت قد صوبت إليه البندقية ، ووضعت إصبعها على الزناد متأهبة لإطلاق النار عليه عند أول حركة تبدر منه .

وخرج " فيليب " من الكوخ ، باغت سائق المركبة بالمسدس يكاد يلمس وجهه ، وأشار إليه بدخول الكوخ ماشياً إلى الخلف وإلا ألهب دماغه بالرَّصاص .

وفى الكوخ جعل " فيليب " يدى السائق إلى ظهره ، وربطهما ربطاً محكماً ، ثم أعاد تقييد " بلاك " مضاعفاً له فى لفات الحبل ، هذا و " إيفا " شاهرة بندقيتها ، مستعدة لإفراغ رصاصها فيمن يحاول المقاومة من الأسيرين ، فيا لها من شجاعة باسلة !

ولما انتهى " فيليب " من عمله ، أسندت " إيفا " البندقية إلى جدار الكوخ ، واقتربت من " بلاك " وهى تحاول أن تفهم " فيليب " أنها تعرف أسيرهما وأن تشرح له كيف عرفته .

وفجأة انطلق " بلاك " يقهقه ضاحكا ، غير حافل بخطر ولا

تهديد ، وقال يخاطب " فيليب " :

– " إنك أيها الرفيق لا تفهم شيئاً مما تقوله الفتاة ، ولا أنا أفهم ما تقول ، ولكننى أدرك ما تحاول أن ترويه لك . . . إنها رواية مضحكة " .

ونظر إلى الباب كمن يتوقع أن تأتيه منه النجدة ، ثم استأنف حديثه مع " فيليب " وقال :

– " أنت إذن " فيليب برانت " أحد رجال الشرطة . . . إنك قرأت اسمى جيداً تحت الوشم . . . أجل أنا " بلاك " ولكن حرف الجيم الذى يسبقه لايرمز إلى اسم " جورج " ، فلوشئت أن تقطع الحبل الذى يربط رجلى وساقىّ لأستطيع النهوض أو الجلوس ، لحدّثتك عن أشياء كثيرة . وما أنا من يستطيع إيذاءك ويداى مغلولتان إلى ظهرى " .

فتناول " فيليب " البندقية ، ووضعها ثانية فى يد " إيفا " ، وقطع الحبل الذى يربط قدمى " بلاك " فوثب هذا واقفاً فقال له " فيليب " وفُوَّهة مسدسه تلمس صدر الأسير :

– " تكلم . . . إنى أمنحك دقيقة واحدة لتقول ما تعلم . . . أنت الذى قدت " الأسكيمو " إلى هنا ، فلماذا تجدّ وراء هذه الفتاة ؟ وماذا فعلت بوالدها ؟ "

فتبسم " بلاك " ابتسامة صفراء وقال فى هدوء وبطء :

– " ما أنا بالرجل الذى يخاف أحداً أو يرهب الوعيد ، إنك تستخدم معى الخداع والحيلة ، وتلك أمورلا تغيب عنى . . . فما أنت

بمطلق علىّ الرَّصاص ، ولا لك أقل رغبة فيه ، ولسوف أتكلم أو أسكت وفق مشيئتى ، وقبل أن أحرم أمرى على ذلك ، أوَدّ أن أنصحك بالابتعاد عن هذا المكان ، فخذ المركبة والكلاب وانطلق بها وحدك فى أقصى سرعة . . . أسمعتنى ؟ قلت : وحدك . فاترك الفتاة هنا وعدّ عن الاهتمام بأمرها وإلا كان مصيرك . . . ”

فكظم ” فيليب ” غيظه ، وكَبَت غضبه ، وقاطعه مكمّلاً عبارته وقال :

– ” مصير “ أولاف أندرسون ” ومصير أولئك الذين ذهبوا ضحاياك فى الشمال . . . ”

فهزّ ” بلاك ” رأسه موافقا .

واضطرب ” فيليب ” ، وعلم إذ ذاك ما كانت الشرطة تحاول أن تعلمه منذ سنتين ، فالرجل الذى أمامه هو الزعيم السرّى الأبيض لجماعة ” الأسكيمو ” السود المنتشرين فى الشمال ، ومن خصائصهم النهب والسلب والقتل ، وها هو ذا ” بلاك ” زعيمهم يعترف بقتل ” أولاف أندرسون ” .

وكاد ” فيليب ” فى ثانية قصيرة ، يضغط بإصبعه على زناد مسدسه ويقضى على هذا المجرم ، ولكنه تمالك نفسه ونظر إلى ” بلاك ” نظرة طويلة ، ثم خفض سلاحه فلمعت عينا ” بلاك ” فرحاً ، وظن أن حيلته قد نجحت فقال :

– " أجل إن الفرار هو فرصتك الوحيدة ، فانج بنفسك فالوقت ضيق " .

فتظاهر " فيليب " بالتردد وقال فى لهجة ليّنة :

– " قد تكون على صواب ، ولكن اسمح لى باصطحاب هذه الفتاة ، فرغبتها الوحيدة على ما أظن هى الرجوع إلى أبيها فأين أبوها ؟ "

فقال " بلاك " :

– " إنه على مقربة من نهر " منجم النحاس " ، على بعد مائة ميل من منبعه ، ولسوف تلقاه حياً إن ذهبت إليه ، ولكن ستترك الفتاة هنا ، فاذهب وأسرع ، وعُدَّ نفسك سعيداً بالنجاة من هذا المأزق الذى رميت نفسك فيه " .

فقال " فيليب " :

– " اسمع يا " بلاك " ! كن صريحاً معى أبادلك الصراحة ... إنى لا أفهم كلمة من اللغة التى تتكلمها هذه الفتاة ، ولا أعلم منها شيئاً سوى أن " برام جونسون " قد عُنِىَ بها إلى اليوم الذى نصب له رجالك الكمين وقتلوه على ما يخيل إلىّ . . . وقبل أن أنصرف عنها ، يدفعنى الفضول إلى معرفة من هى ومن أبوها وماذا أنت فاعل بها ؟ "

فضحك " بلاك " وتهلل وجهه وبرقت عيناه ، وصدّق أن " فيليب " راحل دون الفتاة ، ولكن سرعان ما عرف أن " فيليب " قد هزأ به فخار خُوار الثور لما رآه قد عاد إلى وقفة المهاجم وهو يقول له :

– " تعال " .

فقال " بلاك " مستفهماً متعجباً :

– " إلى أين ؟ "

فقال " فيليب " :

– " ألم تحزر ؟ ألم تحرز أنى راحل مع هذه الفتاة لا إلى الجَنوب ولكن إلى نهر " منجم النحاس " ، وأنك راحل معنا ؟ فاسمع يا " بلاك " ما أقول وتدبَّرْه جيداً لئن اضطررت فى أثناء الطريق إلى القتال ، إن أول رصاصة تخرج من مسدسى ستستقر فى دماغك . . . أواضح كلامى هذا ؟ ففى اللحظة التى سوف يعترض سبيلى واحد من مجرميك الصغار ، تكون أنت قد ودّعت الحياة ... فكن حكيماً وانقل كلامى إلى هذا الرجل من أتباعك الواقف هنا، وكلفه أن يخبر إخوانه حالما يحضرون بما اتفقنا عليه . . . فهياّ أسرع ! . . . أتظننى مازلت أخدعك أيها الأحمق ؟ ! "

٧

أذعن " بلاك " لأوامر " فيليب " ، وأنهى إلى سائق المركبة ببعض الكلام ، وأدرك " فيليب " وإن لم يفهم لغتهما أن الحديث جرى على غير ما أراد ، وأنه لاشك قد طلب إليه ، أن يستحثّ رفاقه إلى اللحاق به وإنقاذه من يدى آسره ، فاتكل على الله ، واعتمد على البندقية والمسدس .

وبعد قليل كانت " إيفا " جالسة فى المركبة ، وإصبعها فوق زناد البندقية التى وضعها " فيليب " فوق ركبتيها .

ثم التقط " فيليب " سوط السائق ، وسلمه إلى " بلاك " بعد أن فك رباط يده اليمنى وقال له بصوت الآمر :

– " والآن عليك يا " بلاك " أن تجرى إلى جانب الكلاب ،

وتسوقها من أقرب طريق إلى نهر " منجم النحاس " فإن كنت حريصاً على حياتك فإياك أن تغامر بها " .

فقال " بلاك " :

– " والله إنك لمجنون ! "

فقال " فيليب " :

– " اسكت ! هيّا سِرْ ! "

ففاه " بلاك " ببضع كلمات بلغة " الأسكيمو " وهو يتميّز حَنَقاً ، وضرب الهواء بالسوط ، فسمعت له فرقعة شديدة ، فهبّت الكلاب تجرى بالمركبة ، وسائقها الأصيل واقف عند باب الكوخ ، ينظر إليها بعينين تتقد فيهما جمرة السخط حتى غابت عن أنظاره .

وكان " فيليب " وهو يجرى وراء " بلاك " فى محاذاة المركبة ، يخالس النظر حيناً بعد حين إلى " إيفا " ويقول فى نفسه :

– " إن " بلاك " لعلى صواب ، فمن الجنون أن أفعل ما أفعل ، فذهابنا إلى ولد " إيفا " يعرضنا معاً للتهلكة ، فى حين أن سلامتنا رهن بطريق الجنوب ، ومن يدرى فلعلنا إذا وصلنا إلى حيث يقيم والدها نجده قد مات ! "

وسارت القافلة نحو ثلاثة أرباع الساعة ، وفجأة أصدر " بلاك " أمره إلى الكلاب فوقفت ، فأشار " بلاك " إلى غابة صغيره تلوح فى الأفق ، ويتصاعد منها عمود من الدخان وقال يخاطب " فيليب " :

– " عليك أنت أن تقرر ما تريد ، فطريقنا يجتاز هذه الغابة التى ترى الدخان يتصاعد منها ، ولابدّ أن نلقى فيها جماعة من " الأسكيمو " وهذه البقعة محفوفة بالأخطار ، وها أنا ذا أصارحك القول ، فاختر لنفسك ما يحلو، وجنبى الرصاصة التى وعدتنى بها " .

وخيّل إلى " فيليب " أن " بلاك " صادق فى نصحه ، ولكن نفسه كانت تهتف به أن وراء كلام " بلاك " نيّة سيئة ، واقترب " بلاك " منه خطوة وتابع كلامه قائلا :

– " انتبه يا " فيليب برانت " لئن صممت على الذهاب إلى حيث تريد، ليلحقنّ بنا قبل الغروب أكثر من مائتين من " الأسكيمو " ، ولقد كان فى مقدورى أن أرمى بك فى هذه التهلكة ، فاحمد لى عملى وحسن نيتى ، واستفد من هذه الفرصة إذا كنت تحب الحياة ، وخذ المركبة والكلاب وعد القهقرى واترك لى الفتاة " .

ووضح " لفيليب " أن محدثه يساومه على الفتاة ويخدعه ، فنظر إليه مغضباً وقال :

– " سنستمرّ فى الذهاب إلى الأمام ، و سنخترق معسكر " الأسكيمو" وستكون لى دِرْعاً تحمينى أو أقتلك ، أفهمت ؟ "

فهزّ " بلاك " كتفيه ، وتصنَّع الطاعة ، ولوَّح بالسوط للكلاب ، فسارت المركبة واجتاز بها " بلاك " الغابة من درب منعطف فى أمن وسلام .

وظلّ " بلاك " يقود المركبة فى حماسة ظاهرة ، حتى وقف بها

فوق هضبة تشرف على سهل واسع ، وأشار إلى الأفق وقال :

– " ها هو ذا نهر " منجم النحاس " . . . "

* * *

أخذ " فيليب " يسرّح الطَّرْف فى الأفق ، وينظر إلى النهر المتجمّد الماثل للعيان ، فإذا بالفتاة " إيفا " تصيح به مشيرة إلى صخرة عالية جاثمة فى وسط السهل ، فضحك " بلاك " وقال يوجه الحديث إلى " فيليب " :

– " تريد الفتاة أن تقول لك إنها قد جاءت إلى هذا المكان مع " برام جونسون " . . . إنك لا تقلّ عنه جنوناً وحُمْقاً ! "

ودون أن ينتظر جواب " فيليب " حث الكلاب على الجرى ، فانزلقت من الهضبة ، ووصلت بعد دقائق معدودات إلى النهر فقفزت إليه وسارت بالمركبة فوق صفحته المتجمدة .

هذا و " فيليب " يجرى إلى جانب " بلاك " ولا يفتر عن مراقبته طرفة عين ، واستمرّت المركبة تسير بل تطير نحو ساعة فقهقه " بلاك " بعدها ضاحكاً ، وقال بلهجة ساخرة هازئة :

– " يا للعجب ! لقد بدأت أميل إليك يا " فيليب برانت " وأحبك مع أنك كدت تقتلنى ولا تبرح تهدّدنى بالموت ، ويعزّ علىّ ألا أنبهك إلى أنك تسير إلى الجحيم ، ولسوف تلقى بابه مفتوحاً لك على مصراعيه " .

فقال " فيليب " :

– " إذن تدخله معى ! "

فقال " بلاك " وقد اشتد صوته غِلَظاً :

– " سيان عندى ذلك ، أما أنت فإنى أرثى لحالك ، ولقد أخطأت إذ رفضت الميثاق الذى عرضته عليك ، فإنما أنت تسعى الآن إلى هلاكك وهلاكى ، وإنى لأراهن على أنك تتوهم أنى أستطيع فرض إرادتى على قبيلة " الكوجملوك " بأسرها ، ولكنك فى ضلال ، فإن لهم رؤساء آخرين ينهَوْن ويأمرون فيطيعونهم طاعة عمياء . . . وكنت أرجو أن تقبل نصيحتى فلا يتلاشى الحلم الجميل الذى أعلل به النفس " .

فقال " فيليب " :

– " وأى حلم هذا ؟ "

– فقال " بلاك " بعد أن زجر الكلاب :

– " إنى أمتلك هناك على مدى البصر ، كوخاً جميلاً مبنياً من ضلوع الحيتان وخشب السفن الغارقة . . . فأمنيتى كانت أن أعيش هناك مع الفتاة غير أنك حرمتنى إياها " .

فقال " فيليب " :

– " كن صريحاً معى يا " بلاك " حتى النهاية ، وأخبرنى أحىّ أبوها أم ميت ؟ وأطلعنى على مصير رفاقه " .

فتصنع " بلاك " الرصانة والجد كأنه يتشبث بفكرة تراوده وقال :

– " والدها حىّ يرزق ألا تدرى أن رجال " الكوجملوك " ، وهم

من الوثنين ، يجلّون آباء العرائس كل الإجلال ، فأبو العروس فى نظرهم ، إله جائل يمشى على قدمين ويمثل الأسرة أقدس تمثيل ، فلما عرفوا أنى أنوى أن أتزوج الفتاة ، كفوا عن أذية والدها وأبقوا عليه ، وأسكنوه كوخاً جميلاً . أما رفاقه فقد قتلوا جميعاً ، ففكر جيداً يا " فيليب برانت " وانظر إلى أين تقود نفسك والفتاة معك ، فإذا قتلتنى ثم قتلوك لا محالة ، فلمن تكون الفتاة ؟ إنها ستكون من نصيب رجل خلاسى يعيش معهم ولن ينازعه " الأسكيمو " إياها " .

وعلى الأثر دوَّى سوطه فى الفضاء فوق آذان الكلاب فضاعفت من سرعتها .

ووثق " فيليب " أن فى كلام " بلاك " شيئاً من الصحة ما دام والد الفتاة لايزال من الأحياء ، وما دام رفاقه قد حصدهم منجل الموت، ولكن الصراحة التى كلمه بها " بلاك "جعلته يستريب من كلامه ، وهذه السرعة الفائقة التى يقود بها المركبة تدل ولا شك على أمر مبيَّت .

وبقيت القافلة تسير حتى كانت الساعة الرابعة ، وبدأ المساء يهبِط على تلك البقاع ، ويظلل الأشجار القائمة على جانبى النهر ، وحرص " فيليب " على أن تجرى المركبة فى وسط النهر ، ليستفيد من عرضه العارى المتجمّد ، ويتخذ منه الدرع التى تحميه دون كل كمين .

وبدأ " فيليب " يشعر بالتعب من هذه الرحلة الشاقة الطويلة ، ولح على وجه " إيفا " مثل هذا التعب ، حتى الكلاب التى كانت تزفر وتلهث

إلا " بلاك " فما كان يبدو علي نصب ولا إعياء ، فأصدر " فيليب " أمره بالتوقف ليأخذ كلٌّ من الراحة ، فوقفت المركبة فى وسط النهر ، وأقبل على " بلاك " فربط يده اليمنى ثانية إلى ظهره ، وقيَّد رجليه، وأسنده إلى تلّ صغير من الثلج المتجمد لا يبعد عن المركبة أكثر من اثنتى عشرة خطوة ، فرضى " بلاك " بذلك غير آبه ولا حافل .

ونزلت " إيفا " من المركبة ، وشرعت تتمشَّى لتستعيد نشاطها وتزيل الخَدَرَ عن أعضاء جسمها ، وذهب " فيليب " إلى ضفة النهر وعاد منه ببعض الأحطاب ، وأوقد منها ناراً ضئيلة ، سترها بظهر المركبة حتى لا يراها الراءون ، وجهَّز طعام العشاء فى نحو عشر دقائق ثم أخمد النار بقدميه .

وعمد إلى جلود الدّببة ، فهيَّأ منها له و للفتاة " إيفا " مضجعاً مريحاً بإزاء " بلاك " .

وانتشر حَلَك الظلام ، ثم طلعت النجوم تتراقص فى القبة الزرقاء فمزّقت أستار الليل ، وعاد اللمعان إلى الأرض البيضاء المغطاة بالثلج وكانت المعالم فى ضفتى النهر واضحة ظاهرة ، ولكنها أخفت مع ذلك شبح رجل كان يقترب من القافلة رُوَيْداً رُوَيْداً .

ومضت فترة من الوقت ، فلاحظ " فيليب " أن رأس " بلاك " يهبط إلى صدره ، وأن تنفسه قد استحال إلى شخير ، فوثق أن النعاس قد دبَّ فى جفونه فنام ، والتفت إلى " إيفا " المستندة إليه كالعصفور ،

فرآها هى أيضاً قد استسلمت إلى سلطان الكرَى ، فبقى هو وحده ساهراً يحرس ويرقب .

وظل " فيليب " يقوم بالحراسة مدة ساعة ، والمسدس فى يده، حتى دبَّ النُّعاس إليه أيضاً ، فقاومه ما استطاع ، فكان ينام فترة ويستقظ أخرى ، ويتفقد أول ما يتفقده أسيره " بلاك " فيراه يغطّ فى النوم ، وقضى نحوساعتين على مثل هذه الحال حتى نال منه التعب كل منال فارتمى فى أحضان النوم .

وكان وعيْه الباطن فى أثناء رقاده يصرخ به قائلا : استيقظ يا " فيليب " ولا تنم ، فالأخطار محدقة بك ، وأسيرك قد يهرُب فيجرّ عليك البلاء ، وما زال صوت وعيه الباطن يهيب به ناصحاً منذراً ، حتى فتح عينيه وسرّه أنه تغلب على النعاس ، ورمى ببصره إلى " بلاك " فرأى تل الثلج ما زال فى موضعه ، وكواكب السماء ما برحت تلمع وتسطع وسكون الليل لا تمزقه نأمة ولا حركة ، ولكن " بلاك " . . . أين " بلاك " ؟

كاد قلب " فيليب " يثب إلى حلقه عندما أيقن أن " بلاك " قد لاذ بالفِرار . . .

* * *

واستيقظت " إيفا " على الجلبة التى أحدثها " فيليب " ، فهالها أن تعلم أن " بلاك " قد هرب .

وعبثاً حاول " فيليب " أن يجد تفسيراً لهرب " بلاك " وغايته ،

فقد ترك البندقية ولم يأخذها معه ، وكان فى مقدوره أن يقتله ويقتل الفتاة معه ، أو أن يتخذهما أسيرين ولكنه لم يفعل .

وانتهى التفكير " بفيليب " إلى الاعتقاد أن " بلاك " قد يكون هرب فى اللحظات التى بدأ هو يستسقظ فيها ، فنجا بنفسه تاركاً عدوه وسلاحه .

واقترب " فليليب " فى يقظة وحذر من تلّ الثلج الذى كان قد أسند ذلك المجرم إليه ، فتملكته الدهشة والرعب عندما لاحظ أن "بلاك " لم يهرب بوسائله الخاصة ، وأن وراء التل أخدوداً طويلاً محفوراً فى الثلج، فعرف من آثار الزحف فى الأخدود أن رجلاً من "الأسكيمو" قد أعد له طريق الفِرار على ذلك النحو الذى كثيراً ما يجنح إليه "الأسكيمو" ويزحفون فيه على بطونهم سعياً وراء الصيد الجافل.

وكان القمر قد شقّ الغمائم ، وطلع فى كبد السماء ، فجمع "فيليب" المتاع والسلاح ، وهيأ للفتاة مقعداً مريحاً فى المركبة ، وألهب الجو بضربات سوطه ، فهبَّت الكلاب تعدو بالمركبة عدواً حثيثاً ، وهو يدعوا الله من أعماق فؤاده ألا يهاجمه " الأسكيمو " قبل انبلاج الصباح ، وأن يصل سالماً مُعافىً إلى الكوخ الذى حدّثه عنه " بلاك " وأخبره أن والد الفتاة مقيم فيه ، فقد يستطيع منه أن يصدّ الهجوم، وأن يحصد " الأسكيمو " وعلى رأسهم " بلاك " برصاص مسدسه ورصاص البندقية .

أما إذا هاجمه " الأسكيمو " قبل بلوغ الكوخ ، فسوف يقلب المركبة ويتخذها حاجزاً له ويدارى " إيفا " وراءها .

وما برحت المركبة تسير فوق النهر المتجمد ، حتى انبلج الفجر وأعقبه الصباح ، فلاحت " لفيليب " على بعد ميل واحد ، غابة كثيفة قام فى طرفها كوخ يتصاعد الدخان من مدخنته فى شكل حلزونى .

واضطربت " إيفا " عند رؤيتها ذلك الكوخ ، وتدفقت من فمها الكلمات تحدّث " فيليب " بما لا يفهم أو بما يفهم ، ففى هذا الكوخ سوف يلتقيان بوالد الفتاة إذا صح ماقاله " بلاك " وكان حياً يرزق .

ومضى " فيليب " بالمركبة تواً إلى الكوخ ، فوصلت القافلة إليه بعد دقائق ، فقفزت " إيفا " من المركبة وسارعت إلى باب الكوخ تدقّه بقبضتيها الناعمتين ، وتنادى أباها بلغتها الغريبة .

وسارع " فيليب " إلى جانبها ، وشعر بحركة فى الكوخ فُتِح الباب على أثرها ، وخرج من شيخ كلل الشيب رأسه ولحيته ، فهجمت " إيفا " عليه تعانقه ويعانقها ، وتقبله ويقبلها والدموع الغزار تنسكب من مآقيهما .

وشهد " فيليب " هذا المنظر المؤثر وهو ساكت لا يتكلم ، ولكنه سرعان ما التفت إلى الخلف على إثر جَلبَة طرقت مسمعه ، فشاهد شبح إنسان يخرج من الغابة ، ويركض إلى الكوخ فى أقصى سرعة ، فجرى " فيليب " إليه والمسدس فى يده ، وتقابل الرجلان وجهاً لوجه .

وكان الرجل الغريب مديد القامة ، أشقر الشعر ، عارى الرأس ، قد

لطخ الدم وجهه ، فلما حدق إلى وجه " فيليب " جحظت عيناه من الدهش ، ولم يكن " فيليب " بأقل منه دهشة واستغراباً ، فخفض مسدسه وقال وهو لا يصدق نفسه :

– " يا إله السماء ! أهذا أنت يا " أولاف أندرسون " ؟ ! "

٨

تصافح الشرطيَّان ، وشدَّ كل منهما على يد الآخر ، ثم قال " أندرسون " :

– " لقد جئت فى الوقت المناسب ، فجميع رفاقى قد ماتوا ما عداى ، لقد كنت واثقا بأنى سوف ألقى فى أحد الأيام كوكبة من الزملاء ، يسعون فى إثرى إلى إنقاذى ، وكنت أنتظرهم بفارغ الصبر ، فكم رجلاً معك ؟ "

ولاتَسَلْ عمَّا خامر " أندرسون " من دهشة ويأس عندما أجاب " فيليب" عن سؤاله وقال :

– " جئت أنا وحدى " .

فطرح عليه السؤال مرّة أخرى فقال " فيليب " :

– " نعم جئت وحدى ، وليس معى إلا الآنسة " إيفا أرمين " فقد جئت بها إلى أبيها . . . وهناك رجل اسمه " بلاك " يجول فى هذه الأنحاء فى صُحْبة جماعة من " الأسكيمو " . . . ولقد استطعت أن أهرب منهم ، ولكنى على يقين بأننا سنراهم بيننا قريباً جداً " .

فضحك " أندرسون " وقال :

– " على بركة الله ! . . . سوف يصلون إلينا فى أول قطار . . . فبْينما كان نصف القبيلة يطاردك ، كان النصف الآخر يسعى إلى اصطيادى، ولكن الغريب فى هذا أنك جئت وحدك ! "

واستقرّ بصره فجأة على البندقية والمسدس فقال :

– " ألديك ذخيرة وزاد ؟ "

فقال " فيليب " :

– " نحو أربعين رصاصة ، ثلثها للمسدس ، ثم إن معى كثيراً من اللحم " .

فقال " أندرسون " مطمئناً :

– " إذن كل شيء على ما يرام ، فهيا نلتجىء إلى الكوخ ولنصحب الكلاب معنا . . . هيا . . . "

وما كاد يتمّ كلامه ، حتى دوَّى فى الغابة صوت طلق نارى ، أعقبه صفير رصاصة مرّت فوق رأسيهما ، ثم انهالت عليهما رصاصات أخرى ، وهما يدخلان الكلاب والمركبة إلى الكوخ .

وبينما كان " أندرسون " يوصد الباب ، ويدفع المركبة وراءه ، هجمت " إيفا " على " فيليب " ، وطوّقته بذراعيها ، وقبلته على مرأى من أبيها ومن " أندرسون " ، وكل منهما أشدّ دهشة من الآخر .

ثم التفتت " إيفا " إلى أبيها ووقفت بجانبه وأفضت إليه ببعض الكلمات فهمها " أندرسون " ولا شك ، فصاح صيحة الطرَب ، فهرُع إليه " فيليب" يسأله متوسلا :

– " ماذا قالت ؟ "

فقال " أندرسون " وهو يزقع شقاً من شقوق الباب بمحْجَره لينظر منه إلى ما وراء الكوخ :

– " قالت إنها ستتزوجك إذا ما خرجنا من هذا الجحيم . . . ولسوف يكون زواجاً جميلاً سعيداً يا عزيزى بين فتاة حسناء وفتى كيّس شجاع . . . ولكننى أشك فى وقوعه ، فإن كنت لا تصدّقنى فتعال وانظر " .

فجرى " فيليب " إلى شقّ الباب ، فرأى طرف الغابة يموج " بالأسكيمو " ولا يقلّ عددهم عن خمسين رجلاً ، ولا يحاولون أن يختبئوا عن الأنظار .

فقال " أندرسون " بصوت واضح صريح ، كأنه يقرأ أحد تقاريره على رئيس من رؤسائه :

– " إنه اليوم الأربعون الذى يحاصرنى فيه هؤلاء الأوباش ،

ويحاصرون معى الشيخ الجليل ، ولقد رددنا هجومهم غير مرة ، ولكن لم يبق لدينا من الرصاص غير ثلاث ، أما الزاد فقد نَفِذ تماماً، وهذا ما حدانى إلى الخروج باحثاً عن صيد أو أى شىء حتى لا نموت من الجوع " .

فقصّ " فيليب " على " أندرسون " جميع ما لقيه من أحداث حتى وصل إلى ذلك المكان ، وود لو يعرف منه شيئاً عما يكون قد وقف عليه من حكاية الفتاة وأبيها .

على أن " أندرسون " الذى كان يرقب المَيْدان من شقّ آخر فى جدار الكوخ من الناحية المقابلة ، أمسك بذراع " فيليب " ودعاه إلى أن ينظر هناك، فرأى على نفس الطريق الذى كان قد سلكه إلى الكوخ ، مركبة قد لاحت للنظر، ثم تبعها أخرى فثالثة فرابعة ، وسار وراءها جميعاً نحو ثلاثين شخصا يلبسون الفراء .

فصاح " فيليب " قائلا :

– " إنهم " بلاك " ورجاله " .

فقال " أندرسون " :

– " وراء هذا المجرم كنت أسعى ، عندما قابلت السيد " أرمين " ورفاقه . . . لقد دنت الساعة فانتأهب لها جميعاً ! "

ورمى " فيليب " نظرة أخرى على المَيْدان فقال :

– " إن " الأسكيمو " يقتربون منا ، وإن رجال " بلاك " قد

انضموا إليهم . . . ولكن لا بأس . . . إنهم يصعدون فى الهضبة القريبة، وسوف يكونون لنا هدفاً حسناً " .

ثم مال " أندرسون " وهمس فى أذنه قائلا :

– " استمع إلى يا " أولاف " إن الساعة التى نجتازها خطيرة جداً، فإن متّ فى المعركة ، فبودّى أن أعرف بعض الأشياء قبل أن أموت ... إنك تعلم أنى أحب هذه الفتاة التى هنا وقد وعدتنى بالزواج ، ولكننى أجهل اللغة التى تتحدث بها فمن هى ؟ ومن أين أتت ؟ وماذا حدث لها ؟ ولماذا كانت فى صحبة " برام جونسون " عندما التقيت بها ؟ إنى أتحرّق شوقاً إلى معرفة كل هذا منك ما دمت تعرف لغتها ، ولعلك تعرف عنها ما يرْوى ظمئى " .

فقال " أندرسون " وهو لا يزال يرقب الميدان :

– " إن رفاقى لقوا حَتفهم فى كمين نصبه لنا الأعداء ، وسأروى لك القصة يوماً بحذافيرها ، واضطررت إلى الفِرار فظلوا يطاردوننى مدة سبعة أيام ، إلى أن وقعت على مخيم كان فيه " أرمين " وابنته ورجلان آخران من الروس . . . وكانوا منحدرين إلى الجنوب ، ودليلهم اثنان من " الأسكيمو " السود ، وفى اليوم التالى برز لنا " بلاك " وجماعته فأسرونا ، واتفق أنْ مرّ بنا " برام جونسون " وذئابه وهو فى نظر " الأسكيمو " مخلوق فوق مستوى البشر ، إنه إبليس الأبالسة وكل ذئب من ذئابه شيطان متجسّد ، فبينا كانت جماعة " الأسكيمو " تهمّ

بقتلنا أنا والرجال الثلاثة ، ويهمّ " بلاك " بالظفر بالفتاة غنيمة باردة ، ثبّطت نظرات " برام " عزائمهم ، وأوقعت فى قلوبهم الاضطراب ، فعدولوا عن جريمتهم .

ولاحظت أن " برام " كان قد التقط من الأرض شعرة طويلة من شعر " إيفا " الأشقر ، وأخذ يتأملها بحب وحنان ، فاقترحت على " إيفا " أن تقص ضفيرة صغيرة من شعرها وتقدمها إليه ففعلت ، ومنذ تلك اللحظة شرع ذلك المجنون يحرسها ويرعاها فى وفاء يفوق وفاء الكلاب " .

وتوقف " أندرسون " عن الكلام ثم قال وهو يشير إلى " الأسكيمو " :

– " إنهم يقتربون . . . لن نطلق الرصاص إلا إذا أصبحوا فى منتصف الطريق ، فذاك آمن وأضْمَن . . . أعود إلى تتمة القصة . . . فبعد عدة أيام ابتعتد " برام " وذئابه وذهب يصطاد ؛ وفى أثناء غيابه هاجمنا " بلاك " وجماعته فقُتِل الروسيَّان وبقيت أنا و "أرمين" والفتاة وراءنا ، ندافع دفاع المستميت ، فسقط " برام " علينا ، ولكنه لم يقاتل بل اكتفى بأن نقل الفتاة إلى مركبته الزحَّافة ، وغاب معها عن الأنظار ، واغتنمت أنا والسيد " أرمين " فرصة الفوضى التى أشاعها " برام " فى جماعة " الأسكيمو " فحاولنا الفِرار ، ولكننا لم نستطع أن نذهب بعيداً ، وكان من حسن حظنا أن عثرنا على هذا الكوخ فاحتمينا به ، وقضينا فيه حتى الآن أربعين يوماً . . . "

وأتمّ " أندرسون " عبارته بطلْقٍ نارى أصاب مقتلا من واحد من " الأسكيمو " فخر مجدَّلا على الثلج .

* * *

بعد لحظات قليلة ، أطلق " فيليب " طلقه النارى الأول فأصاب هدفه ، على أن زَحْف " الأسكيمو " بقى مستمراً ، فحصد الرصاص منهم ستة ثم صاح " أندرسون " :

– " حَذارِ ! إنهم تفرّقوا ، وتدارَوْا وراء الأشجار ، وشرعوا بنادقهم " .

وما هى إلا ثوان ، حتى انهال الرَّصاص على الكوخ ، فمرّت واحدة قرب " إيفا " ، وأخرى فوق رأس " فيليب " ، وثالثة استقرّت فى بطن أحد الكلاب فانقلب ميتاً .

وصرخ " أندرسون " قائلا :

– " تمدَّدوا على الأرض " .

وكرّر قوله باللغة الروسية لتفهمها الفتاة ويفهمها أبوها الذى كان واقفاً وراء الباب ، وهِراوة ضخمة فى يده ، يستعدّ أن يهوى بها على رؤوس " الأسكيمو " عن الالتحام .

وذهب " فيليب " حيث تمددت الفتاة ، واستلقى أمامها ليحميها بجسمه من الرصاص ، وكان من حين إلى حين يقفز ببندقيته إلى شقّ من الشقوق ، ويشارك " أندرسون " فى إطلاق النار ، حتى فرغت

الذخيرة ، وكان رصاص " الأسكيمو" لا يزال ينهمر على الكوخ ، فكثرت فى جدرانه الثقوب ، وانهارت بعض ألواحه ، وتأهب الرجال الثلاثة إلى استقبال " الأسكيمو " وبيع نفوسهم لهم بالغالى من الأثمان .

وعلى حين فجأة كفّ " الأسكيمو " عن إطلاق الرصاص ، فنظر مَنْ بالكوخ إلى بعضهم متسائلين حيارى ، أترى نفِدت ذخيرة " الأسكيمو " أم عمدوا إلى حيلة من الحيل ؟

وعلى الأثر دوَّى فى ساحة المعركة صوت رهيب صاح بعده " أندرسون " قائلا :

– " إنه " برام جونسون " " !

فهرع المحاصَرون الأربعة إلى الشقوق والثقوب ، فرأوا الرجل الذئب خارجاً من الغابة ، رافعا بيده هِراوته الضخمة ، هاجماً هو وذئابه على "الأسكيمو " ، يأخذهم من الخلف على غِرَّة ويكيل لهم الضربات الشديدة، ويصرع منهم من يصرع .

ولم يكد " الأسكيمو " يرونه حتى تملكهم الذعر ، وكفوا عن إطلاق النار ، ثم أطلقوا سيقانهم للريح هاربين من إبليس وشياطينه .

وفتح " أندرسون " عندئذ باب الكوخ ، وخرج هو و " فيليب " إلى الهواء الطّلق ، فلم يمكّنهم " برام " من لقائه ، بل توغل فى الغابة يجرى هو وذئابه وراء الهاربين .

فجلس " أندرسون " على جِذْع شجرة ، ودعا " فيليب " إلى أن

يحذو حذوه قال له :

– " سيعود هو إلينا متى فرغ من مهمّته . . . صواب الرأى أن نستعد للرحيل ، فقد سئمت نفسى رؤية هذا الكوخ . . . أعندك شيء من التّبغ أحشو به غليونى ؟ وسأقصّ عليك تتمة القصة وأنا أدخّن . . . وصلت فى حديثى السابق على ما أظن ، إلى أن الأميرة " إيفا " ووالدها . . . "

فقاطعه " فيليب " فاغراً فاه وقال مذهولا :

– " ال . . . ال . . . ماذا ؟ "

– " هات التَّبْغ أولا " .

فرمى " فيليب " بمحفظة التَّبْغ إلى " أندرسون " ، فحشا هذا " غليونه " واستأنف حديثه وقال :

– " إن " إيفا " دانمركية الأصل تزوجت أمها أميراً روسياً ، ثم توفها الله إلى رحمته تاركة " إيفا " طفلة صغيرة ، فعاشت سنوات طفولتها الأولى فى حمى أبيها ، ولقد أثر عن أبيها أنه حرّ التفكير ، محبّ للإصلاح ، نزيه الضمير ، فتآمر عليه المنتفعون والمفسدون فى بلاط القيصر " نقولا الثانى " وعلى رأسهم الراهب الدجال " راسبوتين " ، فقبض عليه وزج فى السجن ، ثم نُفِىَ إلى أقاصى " سيبيريا " ، فعُنى " بإيفا " الصغيرة نَفَرٌ من الأقارب الأحرار كانوا مقيمين فى " لندن " هرباً من عسف البلاط ورجالاته ، فلما مات " راسبوتين " واندَلعت نيران

الثورة فى روسيا ، هبّ هؤلاء المغتربين الأحرار ومعهم " إيفا " فاستأجروا سفينة ومضوا بها إلى شرق " سيبيريا " ليرجعوا " ببولس أرمين " والد الأميرة ، فاجتازوا فى الذهاب ، البحر الأبيض وعبروا قناة السويس ، وانطلقوا من البحر الأحمر إلى بحر الهند فإلى بحر الصين ، وعثروا فى خاتمة المطاف على " أرمين " ورأوه قد دبَّت إليه الشيخوخة قبل الأوان، وشاءوا أن يختصروا طريق الرجوع إلى " لندن " ، فأخذوا بنصيحة بحار أمريكى عرض عليهم أن يقود سفينتهم عَبْرَ القطب الشمالى من " أمريكا "، مجتازاً مضيق " بيرنج " ، فأخفقت الرحلة ، وانحصرت السفينة بين الجليد ، فتركوها مضطرين وتابعوا الرحلة بالمركبات الزحافة فى قيادة بعض رجال " الأسكيمو " . . . وإنك لتعرف البقية على وجه التقريب... وعندما تتعلم لغة الأميرة " إيفا " يا صاحبى ، فسوف تخبرك هى بتفصيل ما أجْمَلْت . . . "

وكانت الأميرة " إيفا " قد لحقت بالرجلين ، ووصلت إليهما عندما فرغ " أندرسون " من روايته ، فتأبطت ذراع " فيليب " فى جو من الاطمئنان والسعادة . . .

* * *

وفى مساء اليوم التالى ، كانت المركبة الزحَّافة تسير فوق نهر " منجم النحاس " المتجمِّد ، منحدرةً منه إلى الجنوب ، فسمع الركْب بعد قليل عواء ذئاب صادراً من بعيد ، ثم انقطع ذلك اللحن الموسيقى

الذى توقعه حناجر ذئاب " برام جونسون " .

وقضى الركب ليلته فى العَراء ، وتولى " أولاف أندرسون " الحراسة . وفى الصباح تابعت القافلة مسيرها حتى المساء ، فتوقف العائدون ونصبوا لهم مخيَّماً يسترحون فيه ويسدّون الرَّمَق ببعض الطعام .

وبينا هم يتجاذبون أطراف الحديث ، برز لهم فجأة " برام جونسون" يحف به الصمت والجلال ، فقفزوا إليه جميعاً مبهوتين من المفاجأة .

وكان الرجل الذئب يحمل فى يده اليمنى صُرّة غريبة ملفوفة بفَرْوة من فراء " الأسكيمو " . فلم يحفلِ بأحد من الحاضرين ، وذهب فى ضوء النار المشتعلة ، إلى " إيفا " ووضع الصرّة عند قدميها ، ثم عنها وغاب عن العيون .

فقام " أندرسون " إلى الهدية التى قدمها " برام " إلى " إيفا "، ورفعها بين يديه ، وفتح طرفاً من غلافها فقطَّب حاجبَيْه ، وخرج من المخيَّم إلى الغابة وعاد منها صفر اليدين ، فأنهى ببعض الكلمات إلى "إيفا " وهو يضحك ويمزح ، ثم انتحى ناحية " بفيليب " وقال له :

– " قلت لها أن الصّرَّة تحتوى على قطعة لحم فاسد جاء " برام" يهديها لها ، ولم أشأ أن أطلعها على حقيقة ما تحتوى تلك الصرَّة... إنها تحتوى على رأس مقطوع هو رأس " بلاك " جاء يقدّمه إليها هدية منه مشفوعة بالإجلال . . . ولا إخالك تجهل أن من عادات قبائل "الكوجملوك " ، أن يهدوا لمن يحبون رأس عدوه بعد أن يقتلوه . . .

ولعلك تشاطرنى الرأى فى تجنيب الأميرة" إيفا " هذا المنظر البشع ! . . . "

* * *

إن سجلات الشرطة فى شمال " كندا " لا تخلو من غريب الحوادث والحكايات ، ومن بينها قصة " برام جونسون " مؤيدة بالوثائق الرسمية وقد جمعتها إدارة الشرطة فى ملف خاص بها ، يرى فيه الرائى أولا شهادة مقتضبة أدلى بها الشرطى " أولاف أندرسون " ، ثم شهادة مفصّلة وقع عليها " فيليب برانت " وزوجته وحموه ، ثم صورة من القرار الرسمى الذى يعفو عن " برام جونسون " ، وينزع عنه تهمة الخارج على القانون ويسلكه فى عداد المواطنين .

وهناك أيضاً أمر صادر إلى جميع رجال الشرطة الذين يتعقّبون المذنبين، ينهى إليهم بألأ يتعرّضوا " لبرام جونسون الرجل الإنسان العاقل "

وفى ذلك البلد الواسع المقفر الموحش ، استمر " برام جونسون " يجوب الأصقاع النائية فى صحبة ذئابه ، مستسلماً إلى الصيد والقنص مستهدياً بضوء القمر الباهت أو لمعان النجوم المتلألئة فى صدر السماء . . .

رقم الإيداع		١٩٩١ / ٧٩٢٤
الترقيم الدولى	977 - 02 - 3462 - 1	ISBN

١ / ٩١ / ٢٦٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

٢١٢٤٩٢